

الرواية الفائزة بجائزة نجيب محفوظ  
بإبداع الروائي ٢٠٠١

سَمِيَّة رَمْضَان

# أوراق الترحس

رواية



مكتبة مديول

**أوراق النرجس**

الرواية : أوراق النرجس

الكاتبة : سميرة رمضان

الطبعة : الأولى ٢٠٠١ دار شرقيات

الثانية ٢٠٠٢ مكتبة مدبولي

الناشر : مكتبة مدبولي ٦ ميدان طلعت حرب - القاهرة

تليفون : ٥٧٥٦٤٢١ فاكس : ٥٧٥٢٨٥٤

الإخراج والتنفيذ : مكتب النصر للجمع التصويري

القاهرة - تليفون : ٧٨٦٣١٩٩

رقم الإيداع : ٢٠٠٢ / ١٠٥٠١

الترقيم الدولي : 977-208-388-4

مكتبة مدبولي

سمية رمضان

---

# أوراق النرجس

(رواية)

مكتبة مدبولي



## ربما

السلحظة ما قبل الاستسلام هي الأصعب . ربما كان هذا هو سر جاذبيتها النهائي . حد المقاومة على حافة القضم ، بعد أن يكون الكيان قد تمدد كأقصى ما يمكن . الهوة لا ملامح لها . جديدة تماماً ومستعصية تماماً على الخيال . شيء مثل هذا يحدث لمن يساقون إلى حبل المشنقة ؟

ربما . يظل معهم أمل ما إلى أن يغيبوا في القاع . الفارق الوحيد ، أنهم يساقون . رغماً عنهم . لابد أن ذلك أرحم ، لابد أنهم يأسون ومن ثم يموتون وينتهي الأمر . أو ربما يظلون يأملون إلى أن ينتهي الأمر . الفارق أن أمرهم ينتهي .

ما إن تدخل حبة الدواء إلى فمي حتى ألفظها : هي حبة صغيرة بعدها تنامين نوماً عميقاً ، هذا هو كل المطلوب . ويطلبونه ، الأصدقاء ، والصديقات وأخوتي وأمي . الأقرباء الأقرب يتآمرون مؤامرة طيبة بعدها سوف تنامين نوماً عميقاً . ثم تبدأ المفاوضات ، وأتمكهم . حواسي مركزة تماماً . التقط كل نبرة . كل الموسيقى في النبرة . وأمامي يتحولون من نبرة إلى نبرة ، ويتخذون هيئة ، أزهي وأحد وأشد وضوحاً . عيونهم

تلمع ، وتملأ أجسادهم الفراغ على نحو أكثف ، حتى وهم متعبون .  
الهالات السوداء حول عيونهم تكحل العيون ويصبحون كلهم . الأقرباء  
ملائكة الموت الوحيد . يتكثرون في جبهة وأنا وحدي أقاوم . جسدى  
كله متحفز ، ذهني كله متيقظ ، مشتعل بكهرباء الوضوح ، يستهلك  
"نيورونات" في سرعة الملح داخل أروقة الدماغ حيث تبدى الحقيقة  
ساطعة جلية ، وحيث الذاكرة اليوم حديد : هم لا يستطيعون قتلك  
وإلا صاروا قتلة ، هم فقط يريدون التأكد من أنك تنفذين الحكم بنفسك  
في نفسك .

"حبة وردية صغيرة وبعدها تنامين إلى الأبد ، وينتهى عذابك" .

تبدل البدايات كما هي شيمة البدايات ، كل مرة . لا أعرف متى  
يبدأ الضجيج في الاستحواذ على دماغى ، ذهنى ، عقلى ، روحى .  
ضجيج مبهم وأصوات لا تبين . رويداً تستولى الضجة على ساعات  
النوم ، ساعة ، ساعة حتى يصير النوم مرادفاً للعدم . الداء والدواء ،  
السُّم والترياق . الاثنان متلازمان شأن كل شئ . وأجن . من يذهب إلى  
العدم بارادته؟ أحياناً أخدعهم . أوهمهم أننى ابتلعته . ويفرحون فأحزن .  
في الحزن يرق القلب ، ويحل الحنو المشفق محل التحفز وضروريات  
الدفاع عن الذات . ويرق قلبى لهم فيتحولون . يذهب السواد العميق  
الذى كان يكحل جفونهم ، وتختلف موسيقى النبرات . تختفى نبرة

الخداع من سلم الكلمات ، يصبحون ملائكة ، رحمة ، مشفقة ، محبة .  
ما اسمه نقيض عزرائيل؟ أم أن عزرائيل هو اسم آخر للرحمة؟ لكنهم  
يظنون في جبهة ، كأسنان المشط ، متفقين تماماً مثلما يتفق من يعلمون ،  
على أمر ما ، حتى لو كانوا يختلفون في بقية الأمور .

اختلاف الحكماء لا يفسد عليهم هذا الورد الذى يسرى بينهم الآن  
وقد اجتمعوا على الطيبة والخبية ، هم يفعلون ما يفعلون لأمر لا أدركه :  
أدرك فقط أن النية من ورائه سليمة وأن الموت الشخصى الوحيد ، موتى  
أنا ، هو لحكمة أعلى ، ولخير أبقى منى وربما من كل الناس . لا بد أنه  
كذلك وإلا ما استطاع أحد الانصياع .

أبلغ الحبة الوردية الصغيرة وتحتاج جسدى دلائل الموت ببطء شديد ،  
فتبدأ زلزلة قوية مكتومة تتابى من أخمص قدمى ، وتنتهى بأورجازم أقوى  
وأبطأ وألذ من كل ما خبرت ؛ يتلوه آخر يتلوه آخر ، فى موجة وراء  
موجة وبسفس القوة والبطء . ولما تنتهى الموجات القابضة الباسطة ،  
ويسود الخدر رأسى أتأكد أنى قد مت فأشهد بصوت واضح كما  
علمونى : أن مملكة الرب قادمة ، وأنه لا إله إلا الله ، والحكماء من حولي  
يبتسمون ، ها قد رضوا عني ورضيت عنهم ويعم سلام الاستسلام .

أشهد : أنى فعلت كل ما بوسعى . وأنى قاومت بكل ما أملك من  
ارادة وأنى تشبثت حتى آخر لحظة ، حتى وأنا أشاهد عقلى يخلق بعيداً  
وأنى لم أياس . وإذا كنت ظللت لا أفهم ، فليس ذلك لأنى تقاعست



ولكن لأن الخير أكبر من ادراكى ، والشر كذلك ، وأنت أيها الرب ،  
تحتبئ وتبين كالزئبق ، تراوغنى بجمالك ، أراك ولا أراك وأستمسك  
بمظاهرك : الأشجار والجبال ، والورود والبشر . عندما لا أحيك بين  
ضلوعى جمالاً قاسياً ، حياة زاخرة ، مفعمة فى كل خلية دائرة . حين  
تسحب عنى وراء البنايات الأسمنتية القبيحة ، وتعلز أصوات  
الميكروفونات النكيرة ، ولا أعود أرى السماء من وراء الدخان المنبعث  
من حرق القمامة ، حينئذ أستمسك بالايمان بالبشر أبناء دموعك وثغور  
ضحكاتك ولمعة بصرك الحانية القاسية ، وأشفق على نفسى من إصدار  
الأحكام المغرورة .

فى تلك اللحظة أنا طفلة صغيرة بل كل الصغار فى واحدة وعندما  
أستعد للموت تكون واحدة أو أخرى أو كلهن فى واحدة جزءاً لايتجزأ  
منى؛ ويكون على القيام بعملية فى منتهى الصعوبة . يكون على تخليصهما  
من بين ثنايا جسدى وروحى . روحى التى تتغذى عليها تلك الشيطانة  
المزدوجة ، المتعددة هى أنا وليست أنا ، وأمرها كما لو كنت قسيساً  
عارفاً برقى وتعاويد تخليص الأجساد المعذبة من الأرواح الشريرة . من  
تحت أنفاسى ، تحت وقع الخطر الكبير ، وكل ذرة فى جسدى ترتعش «  
يكون على قتلها والاحتفاظ بروحى .

طلوع الروح من الجسد مثل مرور الحرير على سطح من شظايا  
الزجاج المدببة . كيف أُمِر الأخرى وأتحمل حشرجات موتها ولا أُموت  
معها؟ هى مخاطرة كبرى ولكنهم يشجعونى ، وقد ارتسمت على  
وجوههم الآن سمات المتآمرين الطيبين . لكنها طيبة قاسية ، فهم أيضاً  
يعلمون ، أنها قد تقتلنى وتحيا هى ، أو أنا قد نموت سوياً . أستجمع كل  
شجاعتى . وأقبل هول الخطر ، أضع حياتى ذاقها رهناً للموت أو البقاء ،  
لا حامى ، ولا صديق ، اليوم ، عالم فقد كل انخيازاته ، وقف يشاهدنا أنا  
وهى نتصارع ، وهى قد تكون أحدهما أو الأخرى وقد تتحول تحولاتها  
المعهودة ، لتراوغنى فتصبح الاثنتين فى آن . قاتلة أو مقتولة ، أمرها :

- دای آنا!

- موتى يا آنا!

- أم ترائى أقول :

- موتى يا آمنة .



## درس الحساب

تفقد أعصابها تماماً ويحمر وجهها الصغير النحيل ، ويبدو لى شاربها  
الناعم حول الفم الصارم تحته قوسان محفوران علامات امتعاض ومرارة  
طويلين : مس ديانا عانس يونانية تدرس الحساب والجبر لبنات الأثرياء  
الغلبة ، تلبس حداداً دائماً وتفقد أعصابها كثيراً :

- يور ستيوبيد!

تمتد يدها إلى خصلة في مقدمة الرأس الصغير وهوى بالرأس على  
بللورة تراييزة السفرة . زجاج تشيكي مشطوف عند الحواف على  
خشب الأرو "الماسيف" : كتلة صماء . مس ديانا خداها غائران ويكاد  
بياض جلدها يشف عن عظم الفكين المنحوتين بدقة ، فيبدو شعرها  
القصير أكثر سواداً ولمعاناً . عصبية المزاج ، وبالطبع سريعة الغضب  
وتعشق الأرقام .

رفعت يدي أتخس شعري . لا أشعر بدنى ألم . كان رأسي قد ذهب  
لينام . الإنكار هو الحل الوحيد لانقاذ الكبرياء . كان رد فعل تلقائياً وان

لم يكن طبيعياً ألا تبكى صغيرة بالكاد عمرها عشر سنوات في مثل ذلك المشهد . الفتاة ليست متأكدة من ذنبها . والتهمة من الصعب درؤها فهي بالفعل لاتفهم الحساب . لكن وجهها فيما يبدو لا يبدى كم الارتباك الداخلى الذى تحدثه صدمة ارتطام الرأس ببللورة تراييزة السفرة ، وانما اللامبالاة . كان هذا هو خط الدفاع الوحيد . الشكل الوحيد المتاح للتمرد . الشكل الوحيد للحفاظ على عزة النفس الغالية . قطع الأواصر ونفى العالم . وعندما يدخل أبوها إليهم في ابتسامته المعتادة المتفائلة تندفع مس ديانا في الشكرى :

- ابنتك تدعى عدم الفهم . أنا أدري بأنها لو أرادت لفهمت .  
ابنتك دماغها حجر .

تختفى الابتسامة من على وجه أبيها وتشعر بغضب يتصاعد منه إليها .  
هو أيضاً يحملها تبعة عدم الفهم وإلا لماذا لا يرفع صوته محتجاً على ما تقول هذه المرأة العصبية ؟

كانت بللورة تراييزة السفرة قد شرخت وكما هى عادة الزجاج مهما صقل أو كان سمكه ، يبدأ الشرخ بسيطاً في منطقة صغيرة ثم يمتد كجدول ماء يشق له طريقاً في الأرض بصعوبة في البداية ثم بسرعة أكبر وقد يظل يتفرع ويتفرع حتى يغطى مساحة لا بأس بها .

- أرايت ؟ قالت وهي تستعد للرحيل ، تضع أقلامها والمسطرة و"الجوما" . في شنطة يدها بحرص وعلى نحو يدل على أنها امرأة منظمة ، مرتبة ، نظيفة ، عملية ، وسريعة : كلها سمات الأذكاء وفق ثقافة المنزل الصغير .

- أرايت ؟ دماغها أنشف من البللور .

لا يقطع الماس إلا الماس ، لا يفل الحديد إلا الحديد ، لكن الزجاج يتكسر إذا خبط بحجر .

لم يهتم أحد باصلاح زجاج ترايزة السفرة المكسور . وظل هكذا مدة طويلة على مرأى من الجميع ، الدليل الدامغ على نوعية الذهن الذى يسكن هذه الدماغ . ذهن لايعرف الحساب والقدرة على حل مسائل الحساب هي أكبر دليل على توقد الذهن وذكائه . كل الأشياء الأخرى : القصص والسرديات . الأفلام والمسرحيات . التاريخ والشعر والرسم والتصوير هي أشياء يتسلى بها من يعرفون الحساب بعد أن يكونوا قد فرغوا من أشياء العالم المهمة ، المجدية . هي مهربي الوحيد . هناك يصنع المرء لنفسه عالما لاتنشرخ فيه زجاجات ترايزة السفرة . ولكن حتى هناك عرفت أن الزجاج قد يصنعون منه أجراساً عظيمة تفرق بين من يعرفون الحساب ومن لايعرفونه . الحساب هو الفارق اذن . فعلمت نفسى الحساب الوحيد المتاح وقتها . الحساب هو يوم الحساب ، كما في

درس الدين . يوم الحساب يمشى الناس على شعرة ، فمن كان طيباً ،  
وقع في الجنة ، ومن كان شريراً وقع في النار . أصبح كل شغلى ألا أقع .  
وكان الحساب كل يوم . لكنهم بالطبع لم يعلموا أننى فهمت أن الأعشار  
والكسور ، لاتصيب الزجاج والبللور وأن مايصيبها هو الأحجار . وأننى  
رحت أعنى بالحجر الذى بداخلى ، حتى أنى كنت أنام وأشعر بثقل  
دماغى على المخدة وأتحسس وجهى وأعلم أنه في النوم يتحول إلى وجه  
تمثال حجري : ميدوزا . عند الصحو كنت أخاف أن تقع عيني عليهم ،  
فلم أعد أنظر في عيني أحد . كنت أظنهم لم يلحظوا حتى علمت أنهم  
كانوا يظنون طيلة الوقت أنى كنت أخجل من أن أنظر لأحد في عينه  
لكنهم لم يقولوا كيف فسروا ذلك .

شق الأوقات الآخر ، شغف مترقب يملاً كياني . حدث مثير جداً  
على وشك الوقوع ، أياماً بطولها ولا شئ يحدث . فقط هذا التوقع  
المشوب بالاثارة . الأيام عادية . أصحو في السابعة والنصف . المدرسة  
على بعد خطوات . أغسل أسناني وأمشط شعري وأعقد الكرافات  
وأدخل قدمي بسرعة في الحذاء الأسود الطرى . السندويتشات ،  
والشاي في انتظارى على ترابيزة في المطبخ . أكل بسرعة وأقبلها  
بسرعة ، دادة آمنة ، وأمى في الخلفية في مكان ما ، عندما أفتح الباب  
تحضر وتقف حتى يصل الأسانسير . لا أسمع لأمى صوتاً لكن آمنة  
واضحة وقوية :

- بايى ، بايى . . . يا باى ، خلصينا بقى .

الأيام عادية ، لماذا اذن يدق القلب بهذا العنف . شئ مثير جداً على وشك الحدوث ، ولاشئ . فقط الانتباه التام والدقة والحرص فى كل الأمور ، لا الزيادة ولا النقصان . أمشى إلى المدرسة وقد فتننى حافة الرصيف . تعدد بالتفوق فى التمرين . هو رصيف واحد من أمام بيتنا ، يلتف فى نصف دائرة كبيرة ويمر على عمارات عديدة ، ولكنه رصيف واحد فى نهايته المدرسة وعم عثمان البواب النبوى الضخم . أصل إلى المدرسة وأنا أسير على حافة الرصيف احكاما فى التدرب على الانضباط . وفى المدرسة أكتب الدروس فى خط فائق الدقة . ولا أسمح لنفسى باستعمال "الأستيكة" ، وفى نهاية كل حصة توبخنى المدرسة على البطء ولاتننى على نظافة ونظام الصفحة ولا تلحظ انعدام الأخطاء . أعالج هذا الفزع الذى حل وسكن كيانى بالحرص واعتبار كل التفاصيل . هذا الخوف الذى يشملى أوقن أنه خوف من الخطأ ، وامكانيات الخطأ لا حصر لها . لا حصر لها على الاطلاق . ولا يلحظ أحد ، ولا يتذكر أحد سواى .



كل ذرة فى الجسد تتناحل تحت وطأة الدوران السريع المخيف حول نواتها . يكاد جسدها ينفط ويتعثر تحت وطأة كل هذا النشاط .



تعود إلى البيت بنفس الخوف الذى تركت به البيت فى الصباح ولكن فى طريق العودة تبدل أشياء . لا تستطيع السير على حافة الرصيف أكثر من بلاطين . ويدخلها الشعور بالنشل ، فيخفق قلبها أسرع وتشعر أن خلاياها تستهلك نفسها ، وفى أذنها يطن صوت مس كليفر وهى تقرأ وردزورث ، يغلفها فى سحر موسيقى الكلام ، ويدق قلبها على وقع القصيدة ثم يتسارع دون سبب واضح . تكاد تجرى بأقصى سرعة حتى تصل إلى بر الأمان . هناك أمها وآمنة وعم عبده الطاهى ، سيفهمون . تقفز على سلم العمارة درجتين بدرجتين ، وتفتح باب الأسانسير ويدها ترتجف ، تصل إلى الدور الثالث وروحها تسوخ وتنسرب إلى ساقها وتصل إلى باب شقتهم وتدق الجرس ، الخوف الآن أقوى من الحرص ، فتركل الباب بقدمها حتى يسرعوا . وعندما تفتح لها آمنة لاتبسم . وجهها معقود على تكشيرة بشعة وفى عينيها نظرة غضب ، بل مرارة . ويعلم صوقاً متهماً بلا مبرر :

- اتفضللى غيرى هدمك ، واغسلنى وشك . أمك عند "الكوفير" وسايان لايسة ، والناس زمانهم جاين على الغدا .

فاعتذر لها . عم كنت أعذر؟ لا أدري سوى أنه من المهم جداً ألا تعملوا الأصوات . الهدوء هام جداً وإلا حدث شئ ولم ألتفت . أرمى ذراعى حول عنقها توسلاً لكنها تنفض ذراعى وتزداد تكشيرتها وتقول فى صوت أعلى :

- يا شيخه روحى كدة وانتم ما وراكوش إلا الهم .

أبتلع كل هذا ، وأذهب لأبدل ملابسى ، والطين فى رأسى يتصاعد .  
لم تقل شيئاً واحداً يدعو إلى إجابة . أنتظر وأراقب .



بعد قليل تحضر أمها ، وتبدأ جلبة الاستعدادات الأخيرة قبل وصول  
الضيوف . أمها فى "الأوفيس" تملأ آنية الزهور فى عجلة ولكن باتقان  
تام . أمها تلهث قليلاً وعندما تدخل عليها الفتاة لاتراها بداية ثم تسأل :  
- ما عندكيش بلوفر تانى غير اللى انت لابساه ده؟

رأسها مغلف بطنين ينبع من داخله ويصم أذنيها ، ولاتدرى أنه كلما  
أسرع القلب وشعرت أن جسدها يستهلك الحياة فى سرعة البرق وربما  
أسرع ، ولاتستطيع تحمل كل هذا ، إنها وحدها لا تستطيع التحمل .  
هاهى دادة آمنة تغنى الآن فى المطبخ وقد تبخر غضبها وأمها ترتب  
الزهور باتقان رغم ضيق الوقت ويصل أبوها مطمئناً واثقاً ، ومعه وفد  
أجنى على غداء مصرى أصيل : دقية ورق عنب ، أرز بالخلطة ، ديك  
رومى فى الفرن وبصل محمر ، وقبل ذلك سمكة كبيرة بالمايونيز ، زينت  
حتى تبدو سمكة تماماً ، فى عينيها زيتونتان سوداوان وحيث كان فمها  
جزرة ملتوية على ابتسامة سميكة لا مبالية . لا بد أنه كان هناك أيضاً لحم  
وخضروات وبعد كل هذا كان هناك الفراولة بماء الورد والسكر

البودرة، والشاي بالنعناع في دورة وراء دورة في أكواب كستانية صغيرة يطوف بها محمود السفرجى في جلبابه الأبيض الشاهى وعمته السوية ؛ ولم يكن هناك نبيذ ، فقط عصر الرمان الطازج .

يتحدثون بسرعة ويفرغون من أكلهم بسرعة ، ويخططون لبعدهم الظهر وربما حتى للغد أو بعد الغد بسرعة . شغل من النشاط والهمة .

وعندما تدخل الحمام بعد أمها لتغسل يديها ترى أمها تنشف يديها في فوطة شاهقة البياض بنفس الهمة والنشاط . تنبعث منها رائحة برتقال مع أن الغداء لم يكن به برتقال . تفتح فمها لتسأل لكنها تغلقه سريعاً فقد فهمت فجأة وكان أحدهم همس لها : أن للروائح أسراراً .

لماذا لا ينضبط لديها ما يبدو منضبطاً لديهم ؟ هل يعانون من خلاياهم كما تعاني ؟

تدخل إلى غرفتها وتأخذ الحبل من فوق صندوق اللعب وتبدأ في السط . هذا كفيل بالتخلص من هذا الشعور الذى يلهيهمها . ثم تدخل آمنة وتنهرها :

- أبوكى نائم .

وتضيف : نط الحبل فى البيت يجلب النحس . مافيش وراكى "هوم وورك" ؟

مافيش وراكسى غير الهم يا آمنة . ما إن تصعد الكلمات إلى حافة  
لسانها حتى يعاودها الشعور الخفى بالذنب .

كانت أمها تقول عن آمنة أنها غبية . مع انها كانت نشيطة ودؤوباً ،  
ونظيفة . تقول أمها أيضاً أنها عنيدة عند البغال . وكان ذلك يؤلمها لأنها  
كانت تحب آمنة على الرغم من سطوتها وسلطانها . عندما يخرج  
الكبار كانت آمنة هى التى تملأ العالم ، تجلس على الأرض فى غرفة النوم  
وتحكى :

- الله يسامحه أبوياس بقى . كان بيعت ورايا ناس يجيئون من على  
السكة وأنا رايحة المدرسة . أنا لو كنت اتعلمت كنت بقيت حاجة تانية .  
أى والله يا ست كيمى .



ترتفع الذكرى من صدى الصوت فى جنبات كيانى ويعتصر قلبي  
شرايينه ويدفع بالدم إلى دماغى وأندم لها . ليتها لا تقول "يا ست" شئ ما  
لا يستقيم مع هذا الذى تقول الآن وتنطيطها عندما فتحت لى الباب وأنا  
عائدة من المدرسة . كيف يتسنى لها أن تتحول هكذا ، مر طاغية قاسية  
تصدر الأحكام بلا رأفة إلى هذه الغلبانة التى "تتصعب" هكذا على  
ما آلت إليه حياتها تستمرئ الذل فتنادينى أنا الطفلة : "يا ست" . أفضلها  
كثيراً عندما تشتمنى وكانت لا تشتمنى إلا بالفرنسية التى تعلمت منها  
ما يكفى الشتيمة : يا باروسوز ، يا ميشانط ، وأسرع لمواساتها :

- ولا يهتمك . انت فاكرة الحكاية صعبة قوى؟ أنا أعلمك القراءة والكتابة .

فتضحك : يوره ، بقى بعد ما شاب ودوه الكتاب .



كان بيدها كتاب . الأساطير الاغريقية الرومانية ونبتيون إله البحر وخلفه الأمواج على هيئة أحصنة شعورها تتسابق ، وتلتوى وتتكسر عند أرجل الإله ، ثم ديانا إلهة الصيد ، بيدها حربة وفى قدميها صندل سيوره تلتف حول الساقين فى رقة . تكاد كيمي تشارك آمنة الكتاب ، وتحجم فى اللحظة الأخيرة ، بعد أن تكون يدها سبقتها قليلاً ، لكنها امتنعت أن تدعوها : شوفى .

ولم تلاحظ آمنة لحسن الحظ ، فتهم بالوقوف ويكون ذلك ايذاناً بعياد النوم . تخرج وتقف الباب من ورائها ، وأتسلل أنا من سريري ، جسدى ينفذ عنه النوم فى كل نبضة . أود لو أمسكت بشئ لا أدرى ما هو . العالم بأسره ربما . إما العالم بأسره وإما لا .

أفتح الشنطة وأخرج المقلمة وأفعل شيئاً محرماً : أقطع ورقة من منتصف كراسة الرسم . لو قطعت ورقة من آخر الكراسة سوف تسقط الورقة التى تكملها من بداية الكراسة وتؤنبنى مسز فهمى . أوراق الكراسات عهدة مقدسة ، لا يمسه سوى من هم ليسوا على نفس القدر من احترام النفس وحسن التربية ، أمثال لمياء التى كانت تحضر

فى الصبح وكأنها نامت فى ملابس المدرسة واستيقظت بها فجاءت دون أن تغسل وجهها أو تمشط شعرها . الدقة والنظام والنظافة ، الصرامة مع النفس ، كلها تبعثرت أمام سحر الورقة البيضاء الكبيرة المستطيلة . فتحت الكراسة من المنتصف ورأيت الدبابيس التى تعوق اكتمال الصفحة وتقسّمها اثنين ، عن يمين وعن يسار ، فى النصف الدبابيس تلمع ، قلبى يصدق بسرعة أعنف . هانا على وشك ارتكاب المعصية . لكن الأغواء أكبر . وأزهى . وأحد من العاقبة . وخطر الاكتشاف المقيم فى المطبخ ، فى الأنثريه ، فى الصالون : أيا من كان ، من الممكن أن يدخل هكذا دون أدنى تحذير ، وتكتشفين وتصبحين " لمياء " الحيوانة فى نظرهم إلا أن القلم رغماً عنى راح يرسم . درس البارحة عن الذرة ونواتها :

– الآن نستطيع تفتيت الذرة . قال أبى ، ثم أضاف :

– الفضل لأينشتاين . وابتسم ولملت عيناه الهازئتان ، ثم باغتنى :

– تلت الثلاثة كام ؟

تبدل الأهليجات الثلاث على الصفحة ، وتحول الذرة ونواتها وبروتونها وإلكتروناتها تحت سن القلم إلى فتاة صغيرة لها عينان ضيقتان وشعر أجعد ، ضفّرت صغيرتين رفيفتين . حول جبهتها منديل أحمر باهت ربمعا ، به خرز . تلبس جلايية مزركشة ، وتمشى على التربة حافية القدمين . ما إن تبعد قليلاً عن البيت الذى تركته خلفها حتى يخرج لها من بين أعواد الخوص رجالان ، يكتفانها ويرجعان بها إلى البيت وهى تصرخ :

- سيوى ! سيوى أروح المدرسة !

وعلى الصفحة المقابلة ، صورة فتاة ترتدى تونيك أغريقيا هفهافاً  
قصيراً جداً ، ساقها ممشوقتان ، تلتف حولهما سيور صندل رقيق ،  
شعرها مرفوع إلى أعلى وبعض خصلاته المتموجة تتناثر حول الرأس  
الصغير ، أنفها حاد ولها شفتان ممتلئتان مرسومتان في دقة : ديانا ربّة  
الصيد .



تغلق كراس الرسم وتقطع الورقة المسروقة إرباً ، تضعها في كيس من  
الورق كان ملقيا في سلة المهملات تحت مكتبها ، وتعود إلى السرير ،  
لكن صوت آمنة يعاودها ، فيعاودنى .

- يومها وقعت في التربة وأنا باهرب منهم ولما أمى شافتنى خبطت  
على صدرها وصرخت فيهم . أنا ماحدث يمس شعرة من راس بنى طول  
مانى عايشة . بس بقى وبعدين هى كمان قالت بلاها المدرسة ووجع  
الدماغ . ماتت صغيرة ، كنت أطول منك حاجة بسيطة كدة . حلفت  
ما أقعد لهم فى البيت . هربت وجيت على مصر ، ومن يومها .

لكنها تنتفض فجأة :

"والنبي انت فاضية ومقعدانى جنبك أحكيلك ، أوعى كده يا شيخه ،  
وانت تعطلى المراكب السائرة ، أنا ورايا شغل" .

ولا تتركنى مع انى رأيت الباب يفلق وراءها . وتظل تحكى ، أكاد أراها رأى العين ، حتى الآن وأسمعها تحكى . حكاية الملك الأطلسى . ولما تنتهى تقول : "بس وعليه ، كنت هناك وجيت ، حتى العشا ماتعشيت" .

لا أذكر انى رأيتها تأكل إلا فى مناسبات ضئيلة جداً . كانت تأكل وكأنها لا تأكل . تعيش وسطنا ولا أعلم متى تدخل الحمام ، متى تبدل ملابسها . أصبحو فتكون فى كامل هيئتها وأنام وهى فى كامل هيئتها . وتشع منها دائماً رائحة الصابون وكولونيا ٥٥٥ . أذكرها الآن وكأنها ماتت .

أخاف أن أكون قتلتها ؟ لو كتبنا الناس ، يموتون ؟

ولكن كيف يتأتى لى التأكد . كيف يصنع المرء لنفسه حدوداً يعلم بمجرد ذكرها أن له كيانه واضحاً خاصاً ، مايحتمل وما لايحتمل . كيف يحتمل الناس الكتابة فما بالناس بالحياه . أنا لا أحتمل الحياه . الحياه كثيره جداً . وجميلة جداً ، وليست لى حدود تفصل بين ألى وألم الآخرين . أنا آمنه وأنا حكايتها وأنا البنت فى حكاية الملك الأطلسى ، أنا أيضاً عندما كان يسافر أبى ويسألنى عما أريد كنت أقول : سلامتك وتلف عمامتك بيدك وترجع البيت زى عادتك .

كذب ، فأنا كانت لى مطالب لا تنتهى ، وكان يرجع بالقائمة طويلة وقد ترجمت إلى أشياء فعلية : اسطوانات ، ومايوهات وكريمات للشعر ،



وشرايات . لكن في مكان ما بين عيني وذهنى ، كانت تلك الأشياء  
عندما أكتبها له على ورقة بيضاء تشبه ذلك الطمع ، النهم ، المتطلع إلى  
الامساك بما لا يمكن ادراك كنهه . وعندما تتحقق آمال قائمة السفر ،  
كنت أنظر إليها مبعثرة من حولي وأشعر بخيبة الأمل وأدعى الفرح  
والسعادة . حينئذ كنت أتأكد أنى انسان ناكر للجميل ، منافق ، يمثل  
الودَّ والحبَّ والسعادة والامتنان ويخدع .

أنا الملك الأطلسى ، مثله ، فى يوم مرضت مرضاً عضال . ولم يفلح  
فى شفائى كل أطباء المملكة وكما هى العادة ، وصفت لى وصفة صعبة  
المنال جدا . كان السبيل الوحيد لشفائى هو أن تأتىنى فتاة طاهرة القلب  
والفؤاد واللسان . لم تتمنى الشر فى حياتها لأحد . وكانت بالطبع  
مكروهة من الكثيرين فى أوقات ضعفهم وجشعهم . فاذا سأل أبوها قبل  
السفر بناته عما يريدن منه لدى عودته قالت الكبرى :

— عاوزة هون أدق بيه فى اليمن يسمعه فى الروم .

وقالت الوسطى :

— عاوزة مرايا أشوف فيها قفايا .

أما تلك الفتاة فكانت تقول :

— عايضة سلامتك ، وترجع البيت زى عادتك ودائما تلف عمامتك  
بيدك .

بقية الحكاية كانت مخيفة جدا . فالملك الأطلسي بعد أن تشفيه الفتاة التي تنكرت في زى رجل حتى يسمح لها بالتجوال وشفاء الملوك يصبر على أن يتعرف على الهوية الحقيقية للطبيب الذي لم يطلب منه مكافأة وإنما طلب ألا يسعى إلى معرفة شخصه الحقيقي وجعله يعد :

لو أنك في يوم قابلت أحدهم وكدت أن تقتله وقال لك وأنت ترفع يذك إليه بسيفك :

- و حياة طبيبك ماثمة ايديك عليا . إرجع عنه ولا تمسه ، ووعد الملك .

لكن الفضول أرقه ، كما يحق للفضول وتوصل الملك إلى البيت الذي قيل له أن الطبيب يقطنه . في نفس الوقت الذي توصلت فيه الأختان الكبريان إلى معرفة ميعاد زيارة الملك ، كما عرفنا أن الملك لن يجي البيت كما يجي الناس العاديون من الباب ، ولكن من البالوعة . وبذا قامت بكسر كم لا بأس به من الزجاج وتأكدتا من حدة شفراته ، وملأتا بالوعة الحمام بالزجاج ، حتى إذا ما وصل الملك وحاول الطلوع من البالوعة نال من جسده الزجاج المدقوق . شظية صغيرة تدخل جلده ثم تمتد كجدول ماء يشق له طريقاً بصعوبة في البداية ثم بسرعة أكبر ويظل يتفرع ويتفرع حتى يغطي جسده كله الدم .

ومع هذا كانت الحكاية تنتهي نهاية سعيدة كل مرة ولم يكن بها غيلان مثل الحكايات الأغريقية ، ولم يكن بها أناس يضعون الأطفال في الفرن

كما في حكاية هانز وجريتيل ، ولم تكن الأخطار تحقيق بالصغار الطيبين  
من قبل كبار أشرار كما في بلانش نيج ، ولكن طلوع الملك الأطلسي  
من البالوعة ، جعل من البالوعات والحمامات أماكن تسكنها الأشباح  
والشياطين . وجعل نصائح آمنة فيما يخص الحمامات عين العقل ،  
وجوهر التفكير السليم :

- ماتغنيش في الحمام .

- ما تبصيش لوشك كثير في المرايه .

- ما تتشطفيش بأيدك اليمين .

لم يخطر على بالي أن أسألها لماذا . ولم أسمع أحداً يعارضها في هذا ،  
لم أر على وجه أبي ابتسامته الهازئة المعتادة ، ولا ضحكت أمي وقالت  
" كلام فارغ " ، وأدرجت أنا حكاياتها وأوامرها ونواهيها في الحانة التي  
كنت أدرج فيه ما تقوله عندما تنتهي من الحكاية :

- كنت هناك وجيت حتى العشا ما اتعشيت .



## المرّة الأولى ؟

ثلاثة من الأطباء يرتدون ملابس الأطباء والساعة العاشرة مساء .  
يقفون في هـو فخم ، أرضيته من الرخام الأسود والأبيض والطوبى . وسط  
دوائر الألوان ووسط البهو المستدير طاولة من الماهوجونى ، عليها تمثال  
لجوناثان سويفت . أخرج أحدهم ورقة وقلما وطلب منى أن أوقع فى  
خانة فى أسفل الصفحة . أعلى الصفحة قرأت بالأسود فى بنط هادئ  
وواضح : مستشفى سانت باتريك للأمراض النفسية والعصبية .  
فأحجمت عن التوقيع وقد أمسكت بالقلم . وفجأة تذكرت فقلت لهم  
فى صوت يخجل من أن يسمع ، وبالانجليزية لأنى كنت أعلم على نحو ما  
أنهم لا يعرفون غيرها :

– أنا لأعرف القراءة والكتابة .

ولم يبدو على أى منهم ما يدل على أنهم سمعونى ، فكثرت الجملة  
بشكل أوضح . نظر لى الرجل الذى كان قد اصطحبنى إلى هذا المكان  
وابتسم . وبدأ لى ابتسامته هازئة متعالية . تحقر من بنات الفقراء الغلابة  
اللوأتى لم يكن هن يد فى شئ ومنعوهن من الذهاب إلى المدرسة . هن  
الآخرون رؤوسهم وجذب أحدهم كرسيًا من أقصى البهو وقال متنهدا :

- يبدو أنها ليلة ستطول .

شئ ما جعلنى أحسد أنهم لا يصدقوننى . أنه علىّ تبرير شئ ما .  
ولكن لأنهم لم يسألونى رأيت أنه من الأفضل ألا أبدأ بالكلام . تداولوا  
كثيراً فيما بينهم ، ويبدو أنهم اتفقوا أن الاستاذ الذى جاء بي إليهم هو  
أقدرهم على اقناعى بالتوقيع .

- اسمعى ، قال ونادانى باسم تعرفت عليه ولكنه لم يكن له وقع اسمى  
فى اذنى .

أنت متعبة ، ومرهقة وربما لم تنامى من أيام . أنا أستاذك وان كنت  
لا تثقين فى هؤلاء وأشار إلى الأطباء الذين وقفوا عن بعد يرقبون ،  
بإستطاعتك أن تثنى فى . لقد جئت بناء على طلبك . أنت اتصلت  
بى وقلت أنك على غير مايرام .

هززت رأسى نافية ، لكنه أخذ يكمل حديثه كأنه لا يلحظ أنى  
اعترض على مايقول .

أنا أمية لا أعرف القراءة والكتابة . أنا هنا فى هذه المستشفى لأنى  
اكتشفت بنفسى الحقيقة التى خباها عنى كل هؤلاء الناس طيلة هذا  
الوقت . فى اللحظة التى تسبق استيلاء الضجيج على الدماغ وقبل  
أن تتلاشى الرغبة فى النوم ، ويحل محل التأؤب خوف عظيم من النوم ،

ثم الاستسلام للقدر : للحقيقة التى تبدأ كلمة صغيرة تدق جدران الكيان إلى أن تستولى على كل الأفكار . تضم إليها بفعل الكلام السحرى كل الكلام وكل الأوقات من الزمن . ترشح عنها الزيف ، والمجاملة فلا يبقى إلا خلاصة الحقيقة الدامغة . وقتها يكون الذهن متوهجاً تماماً ، والحياة كأبداع ما تكون . تنجلي الحقائق واحدة تسلم الشعلة للأخرى ويرق الفهم ، حين يكون الفهم قد كف تماماً وهربت الكلمات ، وتسقط أقنعة الزيف قناعاً قناعاً وأود لو أصرخ فيهم ، لماذا لا يفهمون ، المسألة أبسط من كل هذا التعقيد . أنا هربت من بيت الرجل الطيب الذى كنت هربت إليه من بيت أبى بعد أن ماتت أمى . هناك حاولوا تعليمي القراءة والكتابة لكنى كنت غبية ، وعنيدة عند البغال ، فلم أتعلم شيئاً . لكن أبى الذى ربانى وسط بناته وكأنى منهن ، كان يشفق على من الحقيقة ، فاتفق مع كل هؤلاء الناس واحداً واحداً وواحدة واحدة ، حتى يجنبوا عنى هذا الأمر وأظل موهومة بقدرتى على القراءة . لكنه بالطبع لم يكن ليقدر على التحكم فى كل الناس وهو على هذا البعد . فعل كل ما فى وسعه . هذا الذى كنت أظنه قاس ، لاذع . ألم يكن يلحظ أن عيى ضيقتان؟ وأن جبهتى صغيرة جداً؟ ألم يكن يرى مدى شبهى بالقردة؟ لماذا ظلمنى هكذا ، وهو يعلم أننى شئ لم يكتمل على سلم التطور؟ لكن الله كريم . كشف لى الحقيقة حتى لا أظل أضحكة للجميع . حتى عمال المكتبة عرفوا وفهموا حتى أفهم وكلوا واحداً منهم ليهزأ منى وهم

يتخيلون أنى لا ألحظ . يرسم على وجهه إمارات التخلف العقلى ،  
ويعشى مشية المعوقين ، وتكاد عيناه تصبحان مثل عينيّ ، عيني قرد ،  
خائف يحيط جبهته شعر الغباء الكثيف . لكنى لا أكرهه ولا أنقم عليه .  
لقا أتاح لي مزحته القاسية الفهم أخيراً . وتجلت أمامى الحقيقة المرة ،  
وعلى تجربتها . والتقبل . الحقيقة التى خباؤها بكل الحرص كل ذلك  
الوقت . ولم يخطر لي أن آخرين يعلمون إلا فى القطار من بلفاست إلى  
دبلن . عندما غادرت القطار كان العالم قد اتخذ له بعداً جديداً وصار نقياً  
واضحاً ، مشطوبة حوافه كأنها بللورات كريستالية تكثفت فيها صور  
الحياة وكانت الأصوات قد سكنت فى دماغى تماماً . فسمعت صرخة  
مدوية وانتفض قلبي كأن أحدهم مات . ضحكت ، لنفسى أطمئنتها :  
لابد أن أزميرالده وايلد تلد أوسكار . خطوت نحو بيتى المقابل لحظة  
القطار وأخرجت مفاتيحي متجاهلة مصدر الصوت . كان الضجيج من  
قبل قد تقطر عن فكرة واحدة مرعبة : ان هذا الذى أحياه ليس حال كل  
البشر . حسى وادراكى للحياة ليس ككل البشر . وبدأ شئ مخيف ينسج  
نفسه ببطء ويتعملق نحوى ، موجة قارية رهيبة تزحف تجاهى ، تبتلعنى  
تماماً ويعم الظلام ، والسكون .

لحظات الولادة فى الأدمغة التى بها عيب كيميائى لا تتراكم فى ذاكرة  
دروب النيورونات . لو تخيلنا شيئاً شبيهاً ربما كان صياداً يترف كل مرة

ينسلُّ من بين يديه الخيط إلى البحر بالطعم حتى بعد سنين طويلة من الصيد . الأنسجة رهيبة . تتزف كل مرة كأنها أول مرة تواجه ما يستدعي الزف . أنسجة لا تتكلس . يزف قلبي الآن وكأنني أرى آمنة أمامي تمسك بالجريدة ، تدقق فيها ودموعها تنسال في صمت . درس الحساب يوصني : هي تبكي لأنك لم تعلميها ويتفرع الشرخ ، يتفرع ، يدمي ويطلب بالثار . أرفع يدي بالقلم لأهوى به على الصفحة البيضاء لكن صوت آمنه يقاطعني متوسلاً : وحياء طيبك ، فاكفُ خوفاً عليها .

ذاكرة تلك الأنسجة ضعيفة أو هي ذاكرة من نوع مختلف ، لا تفرز أنماطاً دفاعية ، أو أن الذاكرة لسبب غير واضح تُشَلُّ ولا يستوعب الكيان سوى ألم اللحظة ، التي ينصهر فيها تماماً في كل كيفما اتفق أو ينتكص ، يعود رضيعاً تركه أحدهم بلا مأوى ولا سند في غابة ملوَّها الأخطار . هي ذاكرة الألم . ألم كل البشر ذاكرة التوحد والوجود ، قبل أن أصبح أنا أنا وأنت أنت : ذاكرة الحب ووجهه الآخر ، ولا شيء بينهما . هكذا تنقلب الشفقة على ذاتها ويصبح التنفس ذاته خطراً محدقاً ، فما أدراني ما يترتب عليه . وما أدراني أى عقاب سيحل من حاصل جمع الإهمال أو التكاسل ، أو عدم الانتباه بعد فوات الأوان . تحت وطأة الشك والحذب على فعل ما هو أصح ، ليس هناك مرشد ولا دليل ، تتوهج الروح وتنطفئ ، تتقدم وتراجع ، لا تجرؤ على استكمال حتى فعل التنفس ، تخاف أن يتسبب أى شيء تفعله في موتها أو موت غيرها وتعلم



فقط أنها تذهب طيعة إلى أحضان الظلام لو كان في ذلك خير ما ،  
لوعلمت لماذا عليها أن تموت لماتت . في بداية أخرى سوف يتبدى لها  
أنها تعلم وعندها لن تتردد قبل الاستسلام ، والكتابة .

هـل ولدت هكذا؟ تلك الفتاة التي جلست بجانب الأستاذ العظيم  
رسطحها في هدوء إلى حجرة الاستقبال في مستشفى سانت باتريك ،  
وإذا كانت ولدت هكذا كيف لم يلحظوا؟ أم تراهم لاحظوا وكانوا  
يتكتمون؟ أم أنها في بيتها وبين الأهل ، في لغتها ، كانت تلك الأعراض  
تفسر على نحو مختلف؟ عندما تحمر وجنتها من نشاط داخلي يدوئها فلا  
تكف عن الضحك والحركة ، وعندما تنهد عزيمتها وتخرس شهراً بأكمله؟  
بماذا كانوا يفسرون تسارع خفقان قلبها التي كانت تشعر به يكاد يتوقف  
من شدة ضرباته ، ثم السكون التام ، تليه ردود الأفعال العنيفة غير  
المبررة والشك في طيبة المعاني من الكلمات ، والشك في كل النبرات ،  
مهما كان يراد بها الطيبة ، الكلمات ، الكلمات هي شرور الأيام  
الصغيرة والشرور معظمها صغيرة .

لم الحظهم وهم يصنعون من حولي جرساً كبيراً من الزجاج السميك .  
لم ألاحظ . لأنهم صنعوه صناعة عجيبة ، كلمة . كلمة . كل كلمة بللورة  
كريستالية صغيرة مشطوفة بمذاق ومهارة ، لها جرس وموسيقى معدنية  
حاددة . وكان يستطير من تلك العملية الكلامية شظى يخزُّ جلدى .

ما الذى كان يؤذيهم منى ليعزلونى هكذا؟ لماذا يتسامرون فى سر ، ويتصاحكون ويتفهمون بعضهم البعض وأنا لا . ولماذا أشعر بكل هذه الغربة وسط أهلى ، وأهلى الناس جميعاً . قتلتهم كلهم فى ثلاثة أيام؟ كتبتهم ثم مزقتهم عندما استولت أنفاسهم على هواء الغرفة وابتلعتهم ولم يعد لى متنفس فى المكان .



دلقت السيارة الحمراء العتيقة إلى درب الحصاء والتوى سيرها حتى وصلت إلى باب المستشفى الفخم .

بين طيات مشاعرها الملتبسة تجاهه ، الخوف والرغبة والتطلع إلى رضاه عن كتابتها ، كانت تعلم أنه الوحيد الذى يعتمد عليه فى مثل ذلك الظرف . هو جلادها الذى كان يدعى أنه لم يسمعها تقول له صباح الخير فى فناء الكلية أو المطعم . كان تجاهله هذا يؤلمها ولا تدرى له سبباً فالمفترض أن الأساتذة يعنون بالطلاب ، ولم تكن تعلم أنهم من المفترض ألا يعنون بالطالبات . ومع هذا أو ربما لهذا فاز وحده بثقتها فى تلك اللحظة دون كثيرين ممن كانوا يتوددون .

- آمنة متعبة جداً يابروفيسر .

- من "أنا" ؟ قال .

- أنت تعلم . هى متعبة جداً وتعتقد أنها فى حاجة إلى المساعدة .

- فهمت .

فى ظرف دقائق معدودات كان يقف أمامها على باب غرفتها ،  
اصطحبها من يدها ونزلا إلى سيارته التى ركنها فى الممنوع وجاء بها إلى  
هنا .

فى اللحظة التى وضعت فيها اسمى فى الخانة أسفل الصفحة ، شعرت  
أننى قمت بعمل لا يدرك فداحته إلا من قتل . من قتلت؟ ماذا كنت أفعل  
طيلة ثلاثة أيام كاملة ، بعد أن ابتلعتنى الموجة العملاقة؟ وانتبهت أن  
الأصوات سكنت . وظهرت الفكرة جلية لا لبس فيها لها جاذبية ألف  
ثقب من ثقب السماء السوداء : لو كتبهم يموتون ولو لم أكتبهم يحكم  
علىّ أنا بالموت . قرار الحكماء لا رجعة عنه . من يتلف هدايا الحكماء  
مصره الموت ، ولأن الحكماء لا يقتلون ، عليك أن تنفذى الحكم بنفسك  
فى نفسك .



## ١٧ وستلاند رو

المتر رقم ١٧ في شارع "وستلاند رو" هو المتر الملاصق للمتر الذى ولد فيه الساخر اللوطى أوسكار وايلد . كبش فداء الامبراطورية وظلها الظليل . المتر تسكنه أربع عشرة طالبة دراسات عليا . يفضى فناؤه الداخلى إلى ممر ، به باب صغير يدخلك إلى حرم الجامعة مباشرة . أقصر الطرق من وإلى المعامل والمكتبة . فى نهاية الممر على اليسار ، حانة: دبلن مدينة الحانات والكلام الشاطر .

فى الدور الأول الحجرة رقم ١٤ . هنا سكنت ولمدة أربع سنوات متتالية ، امرأة غريبة الأطوار . لاتسعى إلى أحد ولا يسعى إليها أحد . تحبس نفسها فى حجرها ولاتغادرها سوى للرد على تليفون يجيئها كل يوم فى الحادية عشرة مساء من بيروت . أيام الاثنين تصلها باقة ورود فى الصباح . بريدتها كثير ، لا يمر يوم دون أن تلتقط من على الطاولة المخصصة للبريد فى البهو خطاباً أو اثنين . تختفى كل شهرين أو ثلاثة لمدة تتراوح بين الأسبوع والعشرة أيام . بقية الوقت هى فى حجرها

أو في المكتبة . لا تستعمل المطبخ ، ولا تنزل للفرجة على التلفزيون . كانوا في البداية يحاولون تجاذب أطراف الحديث معها ، لكنهم مع الوقت كفوا . ربما بدت مستغنية عن الصحبة . أيام الآحاد تصحو مبكرة وتمشي إلى جرافتون ستريت تباع الصحف وتذهب إلى قهوة بيولي للافطار وشرب القهوة . امرأة متعالية ، تنتابها حالات من الدفء الانساني ، فتزل إلى المطبخ المشترك ، وتنشغل ببرامج التلفزيون ، وتضحك ملء رئتها على ليني بينيت ، وتجادب الحديث مع أيا من كان ، وتطبخ وتسخر ، ثم فجأة تراجع وكأنها نادمة أنها صنعت لنفسها الأصدقاء ، فتنفّر وتسكت وتختفي أياماً طويلاً . أحياناً تذهب إلى الحانة ، لكنها لا تشرب الخمر ، وتدخن بشراهة . في الحانة كانت تتحدث كثيراً عن جيمس جويس ، ويتس ، وديلان توماس وتسخر من نفسها : مملكة الرب ، والمنفى ، كتبت لي تقول وتضحك على نكتة لا يضحك لها سواها . وفي اليوم التالي لاتلقى التحية على أحد وتنهمك في شئونها ، في الحادية عشرة مساء يصلها التلفون المعتاد وتبدو راضية وهي تغلق باب الغرفة وراءها .

هناك كان المصباح بالكاد يطفأ . كانت تكتب ، ولا يقرأ لها أحد :



## أمثلة الوطن

على الحائط خريطة المنفى . رأيت مثل هذا على حوائط أخرى ، لكنها كانت خرائط تستدعى الوطن . منهم من كان يعيد تركيب الوطن داخل جدران بيته ، وعلى الحوائط . يستحضرون مصر "بأشيانها" : مشغولات ، أكلمة ، أوراق بردى ، تماثيل صغيرة ، وصور على الحوائط . كان ذلك في لندن . لندن كانت مليئة بالمصريين . هنا لا يوجد غيرها ، والأفارقة . في البيت أمام المخططة كانت حيطان الغرف الصغيرة تعلق عليها صوراً من جنوه وروما ، كانت هناك بلجيكا صغيرة في إحدى تلك الغرف . ودمشاك وصين ، وألمانيا . حتى غرفة ماري كانت بها صور لانجلترا . لماذا ظلت خريطة منفاها هي أبعد ماتكون عن الوطن؟

على الحائط جيمس جويس يضع يديه في عصبية واضحة في جيوب بنطلونه الواسع ، يقف أمام كوخ صيفي ، مستغرقاً في التفكير ، عيناه غائمتان من وراء النظارة المستديرة وعلى رأسه قبعة صيفية ، يبدو متعالياً تعالي ضعاف البصر غير المقصود ويتجاهل صمويل بيكيت الذي نحت رأسه الفذ من كتاب ديردرى بلير الضخم . تحتها بنات جوجان

السمراوات يتسمن لُطَّاب لايجئون ونسخة رخيصة عن لوحة لامرأة صينية ذات رأس مرتبك . اسمها المرأة ذات الرأس المرتبك ، تنظر باستمرار إلى كارت بوستال عليه صورة يافطة اتجاهات في منتهى التعقيد، تحمل أسماء ما لا يقل عن عشرين قرية في نفس الوقت : اليافطة حقيقية . ران هناك عجوز بعينين واسعتين رماديتين تحدقان يأساً وأسى نحو صورة لميناء صغير يحمل بحاراً للوَّحت وجهه الرياح المالحة بسمرة سمكة قاسية ، وكان البحار يستعد للرحيل في قارب خشبي صغير ، لكنها لم تكن تعلم .

خريطة تتبدل وتعكس الحنين إلى وطن متخيَّل ، لا ينطبق ولا يتماثل ولا يستطيع الشهادة على وجوده أحد . وطن يعاد تركيبه حسب الحاجة وحدة الحنين . إلى ماذا الحنين؟ مكان جميل وفقير يملؤه الشجن . لا يعرفه أحد ممن تعاشرهم هنا ، ولا يهم أحد أن يعرفه . ولما كانت تضطر إلى تعريفه ، كانت ترتبك ، إذا تصادف وسئلت . ففي مثل تلك الأثناء كان عليها أن تكون هي هو . كيف يتحمل المرء مثل هذا؟ إلا إذا كذب أو لفق ، أو تشبث بعناد ، أو نسي ما جاء به إلى الغربة ولبث في الغربة لا يبحث إلا في الوطن .

لما عاد دافني ونيكولوس من ليبيا وأفاضا في الهزء والسخرية ، ماذا قالوا حتى أنها اضطرت أن تقول : مصر ليست ليبيا وبعدها لماذا شعرت بالذنب؟ لأن لها جذوراً في قرطاج ، وبعض أهلها يتفاخرون بأصولهم

البدوية؟ مثال واحد فقط ، وما لم تسمعد من الصديقات والأصدقاء كانت الكتب ، وحتى الصحف أحياناً تمتلئ به . كتب القرن التاسع عشر . في القرن التاسع عشر بالذات كانوا يقولون الحقيقة ويكذبون . كيف يواجه شخص واحد كل هذا التوثيق لأماكن تحيا في الوجدان لغة حية وأحباء ، وتواريخ ليست في كتب التاريخ ، أو هي ليست سوى في كتب التاريخ . كيف يروى شخص واحد قصة وطن ويقول وطنى ليس ككل وطن ، ولا يقع تحت طائلة الكذب ، والمغالاة؟ الوطن البدء وأصل الأوطان ، تمزقت قصته وجرى بها الغرباء كل في ناحية ، وقسمت أواصره على الكليات في الجامعات وتبعثر بفعل نظام ديوى على أربعة عشر مصنفاً مثلما تصنف المكتبات

في الحلم أو كأنه الحلم . وقفت أقرأ القائمة ، قلبى يكاد يتوقف من هول ما فهمت عندما فرغ الاستاذ من محاضراته عن مصر . الاستاذ عالم متخصص في التاريخ ، ومن بين كل التاريخ : الشرق الأوسط . بجانبه شاشة ضخمة تزل عليها صور ، يقف بجانب الشاشة وفي يده عصا طويلة يشير بها إلى الصور . عندما نظرت في الورقة التي كان يدون فيها زميلى نقاط المحاضرة تعجبت من قدرته المدهشة على التلخيص :

مصر القديمة اختراع فرنسى من القرن الثامن عشر ، سرقة الألمان والانجليز واحتفظوا بشفرته في المتحف البريطانى .



امبراطورية الأسكندر ، الوريث الطبيعي لحضارة أثينا الاغريقية التي  
هى أم النهضة الأوروبية وأبوها وأختها وأمها إلخ

امبراطورية الرومان ، حدث بربرى مؤقت لكنه زاحر بالفلسفة  
المسيحية الأوروبية القروسطية التي تمحضت عن التشييد القوطى البديع ،  
وكانت البوتقة التي انصهرت فيها النهضة .

الامبراطورية الاسلامية حدث كذلك لايمكن نكرانه ، انتج فتوناً  
لم تعتد بتصوير الانسان - الامبراطورية العثمانية ، رجل أوروبا المريض .  
- امبراطورية نابليون والتنوير . - امبراطورية بريطانيا العظمى وضياح  
الهند .

أين من كل هذا مصر؟ وعدت أراجع عنوان المحاضرة : كان كما  
قرأته من قبل ، كان عن تاريخ مصر الحديث! آه ياكيمى ، قصة لم تجمع  
ولم تسرد ولم تُغنْ إلا مشرزمة . استلبوك فصاروا منك ، هل صرت أنت  
منهم ؟

فى كيانها وداخل دماغها حرب أهلية بين كل الأمصار وهى كل  
الأمصار : إذا تكحلت هكذا وصارت نفرتيى ، وإذا زرعت الحلبة  
والعدس قبل عيد الفصح وإذا قرأت الشعر العربى ، وإذا حنت إلى بيت  
أبيها فى الأسكندرية وإذا تذكرت حكايا أمها عن جهاز حماما التركية ،  
وتحكمات أبيها من الأزهر وعائلته ووسط كل هذا ومن ثناياه يجيئها

صوت أمها تحكى "شابورون روج" صباح يوم أحد مشمس في حديقة  
الأسماك ، ومس كليفر تقرأ وورذ ورث ، ويصحبها أبراهام إلى هايد بارك  
ومتحف مدام توسو ، في عز شتاء الكريسماس وإلى البلاس فوندوم  
في عز صيف باريس الحار الرطب ، وفي الليل تخاف أن تضطر للذهاب  
إلى الحمام فتري الملك الأطلسي وهو يصعد من البالوعة . فاذا سنلت  
قالت : مصر مهد الحضارات ، فإذا هزأ أحدهم كما هزأ نيكولوس بعد  
زيارة ليبيا ، أضافت ،

— هذا ما قال برستيد .





## المرأة

لأيام طويلة ما كانت تحدث أحداً وما كان أحد ليكلمها . إلى إن كان يوم سبت دخلت فيه مكتبة جرين أمام مدخل الكلية ورأت البوستر . نسخة فوتوغرافية من لوحة سلفادور دالى "زهرة النرجس" واشترتها . كانت ماري ، التي تقطن الغرفة بجانب المطبخ في الدور الأول ، معها وهي تعلقها على الحائط . وبدأت تبرر لماري لماذا اشترت البوستر وفجأة اكتشفت أنها لاحظت الشكل الانساني ، والبحيرة الزجاجية ، ولاحظت أوراق الشجر ولكنها وحتى تلك اللحظة لم تكن قد لحظت الزهرة : زهرة النرجس . هوى قلبها وكأنها اكتشفت شيئاً مزعجاً يمشي على الحائط . وكانت تلك هي اللحظة التي بدأت فيها السيور البللورية الدقيقة التي صنعت الجرس الزجاجي الكبير تنسل . حتى تلك اللحظة ، كان الجرس يحميها وتقدر على الضحك من حين لآخر ، حتى عندما تناديه شيفون : يا سيلفيا . وأحياناً : يا بلات .

أفيقي ، أخرجي من تحت هذا الجرس الذي تصرين أن تقبعي تحته . سوف تكون نهايتك مثلها . سوف تدخلين برأسك إلى القرن وتفتحين الفاز وموتين ميتة مفعجة . ولأنه ليس لك زوج يرثيك ، لن يرثيك

أحد . ولأنك لست شاعرة لن يذكرك أحد وتضحك ، أحياناً حتى  
والطنين يعلو :

اكتبيني ، وحدك أنت تقدرين . أنت فقط تنقذيني . تاب . تاب .  
تاب . كل الموسيقى في النبرة والخديعة كذلك . . . والذكرى . . .



شيفون لم تكن تعلم ولم يكن يعلم أحد ، أن لي زوجاً وأنه شاعر ،  
وأنه كان يفضل بيتس ، على تيد هيزوز وعندما يبعث لي الخطابات كان  
يزينها برسوماته ويدعوني "سباً" ويوقع : سليمان . واني كنت أكتب  
له الشعر ، لكني لا أريه أشعاري . عندما جاء لزيارتي في المرة قبل  
الأخيرة ، كان يستعد للعودة إلى بيروت . قال : لن تعرفيها ، صارت  
خرابا . كان يكبرني بخمسة عشر عاماً وكنت أدعوه : دادى ، مع اننا  
لم نختلف أطفالاً . لم يكن في وسعنا أن نتزوج كي نتجب أطفالاً . السن .  
والديسن ، ومكانته في مجتمع متعصب ، أشياء كانت هامة جداً بالنسبة  
له وقبلت وكان في يدي ألا أقبل :

- قولى أنا وكررى!

- أنت .

- قولى أنا . . أنا .

- أعوذ بالله . . ما أنا بـ . .

- لن تفلحي لو لم تقولى أنا ملء رثيتك .

- مثلك؟

- اتسعت عيناه عن دهشة حقيقية ونفى عن نفسه التهمة بحرارة :

- لا يستطيع أحد اتهامى بالأنانية . أنا أبذل نفسي . أنا لا أتوانى . .

أنا أفعل كل وسعى في سبيل الآخرين وأنت تعلمين .

- نعم أعلم . . أعلم . لا ، لا أعلم . لماذا تصر أن أريك أنت

ما أكتب قبل أن أريه لأستاذي؟

- أنا أستاذك .

- وهو؟

- نحتاج إلى توقيعه على الشهادة عندما تنتهين من رسالتك .

- لماذا نحتاج دائماً إلى أشياء غير الحقيقة ؟

يصمت ، يستدير ويرحل ويعود .

كانت له زوجة تحبه كثيراً ، وابنة كنت أنا أحبها وتكرهنى ، وتزداد كراهيتها لى كل مرة نلتقى ، وأحبها لأنها لم تكن تخفى غرقها على أبيها أو على أمها ، من يدرى . لابد أنى أربكتها كثيراً . رأيتها يوماً فى بيتهم فى لندن تمسك صحيفة الأحد ، وتنسأل دموعها فى صمت . خفق قلبي متوجعاً وعاردين الوحز . أنا السبب . أنا تنكرت لآمنة ولم أعلمها القراءة والكتابة . هربت من بيت أبى ، لأستمع بحياتى وحدى . لألهو

وأغرق في اللهو . تنكرت ، وأنكرت إلى أن صاح الديك في المرة الثالثة .  
كانت لي ميررات قوية بالطبع ، ازدادت قوة كلما ازداد الخناق . هو  
يسافر ، يحاضر ، يغذى ذاته على اعجاب الآخرين والأخريات لا مانع .  
يشرب الخمر ويعود مع الصباح مترنحاً ، ينجى إلى يغلف هداياه شعور  
بذنب ما وأقبلها . يجعلني أقطع على نفسي مئة عهد ألا أخرج  
إلا للجامعة والمسرح ولا يثق : يتصل كل يوم في الحادية عشرة مساءً ،  
يسجنني في خطابات طويلة بديعة ، أرهن عليها أنفاسي وأرقم بها الحياة .  
يصبح هو المنتفس الوحيد وفرصة التفاعل مع البشر ، يصبح هو البشر .  
وأنا امرأة تنتظر . الوهم يتكشف رجلاً مرتين في السنة ؟



تركت مارى ، بل ربما طردتها وانصاعت ، وضعت معطفى على  
كتفى ولففت الكوفية البيضاء حول عنقى وخبطت الباب ورائى وذهبت  
إليه في مكتبه . شعره الطويل يكاد يلمس كتفيه ، سواده الفاحم تغزوه  
شعيرات فضية لامعة تلتف حول ياقة القميص السماوى تطل من فتحة  
بللوفر كحلى ، ونظاراته المستديرة الصغيرة اطارها الذهبى في سمك سلك  
خفيف . فمه مثل أفواه الملائكة الصغار المدملجين على جداريات عصر  
النهضة الايطالية وعيناه البنيتان تلمعان مسرورتين . التقينا في حفل للباليه  
الايرلندى الحديث في مسرح الآبى . ولما قدمونا قال : أنا أعرفك جيداً ،  
أنت المرأة التى أراها في أحلامي .

فضحكنا كثيراً وقلت له أني لا أحب مقاوم كارل يونج فقال أنه هو شخصياً فرويدى حتى النخاع ، فضحكنا أكثر ولم أكن ضحكنا من زمن . ولما قال : متى نلتقى؟ نزلت بيني وبينه غلالة الخديعة ، والكذب لكنني تذكرت فتاة عربية صغيرة اسمها مريم . تفتح صحيفة الصنداي تايمز يوم أحد ممطر في لندن . الصحيفة أكبر من ذراعها ، تحبب وجهها بين طياتها وتبكي في صمت . فقلت : نلتقى يوم الأحد . ولما جاء الموعد لم أذهب .

عندما رآني وكنا في منتصف الأسبوع ، كتم السرور في عينيه وغلف صوته بنبرة هازئة محبة :

- ومن أشكر على هذه الزيارة التي تأخرت ثلاثة أيام؟

قلت :

- سلفادور دالى .

- بلا مزاح؟

- بلا مزاح .

- هل تودى أن تحكى لى ، متى ، كيف ، إلى آخر تلك الأشياء؟

- كنت أعلق بوستر "لزهرة النرجس" وعنّ لى أنك أنت من جعلنى

أرى .

وذهبت إليه فى كرسىه أمام النافذة التى كانت تطل على الفناء ، وشممت رائحة الصابون تبعث من ياقة القميص . من النافذة رأيت تمثال هنرى مور الذى كانت قد اشتريته الجامعة حديثاً من منظور مختلف لأول



مرة : قابلاً في استسلام على النجيل الناعم وأطفال كثيرين ، يدخلون ويخرجون من بين فجواته الملاء المستديرة . قبلته على وجنته وفجأة أدركت المسافة التي تفصل الكلمات عن التواصل . انك في حاجة إلى الكثير جداً من الكلمات وأكثر منها لحظات صمت ترقمها ، والآلاف من الحركات الصغيرة ، متناهية الصغر تكاد لا تلاحظها حتى العيون المدربة ، وأكثر منها نبرات تدل على سوء الفهم قبل أن تستطيع أن تمسك بآخر في لحظة عين وتعلم أنك تعنى ما تقول وتقول ماتعنى بلا زيادة ولا نقصان . قبل كل هذا أنت في حاجة إلى أكاذيب كثيرة ، كثيرة .



في حجرها على السرير الصغير كانت تتملى الجسد الأبيض القارع . من قبل لم تكن تحب البياض . كان يوحى لها بالترهل . ولم يطرأ لها قط ، أن تعرف رجلاً لم تمسه موسى الختان المظهرة . لكنه تركها مرادفاً للجمال الحائى ، والاكتمال الوثير . متعته تمتد وتتباطأ تتعبد في جسد صاحبها ، فتفرج له مستسلمة لاختراقه لأنه يتسريل في حنو المتهدج ، فيعلمها الصلاة .

عندما دق جرس الباب . سأها :

- ألن تفتحي الباب؟

ردت : لا .

- هل تعلمى من الباب؟

- نعم

- هل تركتني أدق الباب ، وكنت في الداخل وأنت تعلمين أن الطارق هو أنا ؟

نعم قالت ، وكانت تكذب . لقد أحبته تماماً . .

جذبت الباب خلفها في هدوء وذهبت إلى الحانة . كانت السماء تمطر طيناً ، دخلت حانة "أونيل" وشربت طيناً وعادت إلى حجرهما ملابسها ملتصقة بجسدها ومرضت ، وكانت تهدى تحت وطء الحمى .  
جاء الطبيب وقال :

- لاشئ يستدعى القلق . سوف ينتهى الأمر برمته وكأنه حلم .

لما تعافت ذهبت إلى المكتبة ولم تقرأ شيئاً كان في استطاعتها فهمه .  
وعندما جاء على دراجته ينفض عن نفسه المطر ، قال :

- ربما كان من الأفضل أن تعودى إلى بيتك . بك كل الأعراض .

كان يمزح بعض الشيء . يعلم أنها لا بد عائدة ويعلم أنها لاتعنى ماتقول  
عندما تقول ان الحل الوحيد كى تبقى هو أن يتزوجا . لكنها لم تضحك  
على ما كان يسميه "الأعراض" وكانت طريقته فى دعوتها إلى بيته ،

"بيتك" كان يقول . لكنها باغته بغضب يضغط الكلمات ، وينفثها  
فحيحا يكاد لا يسمع :

- أين بيتي؟ ما هو هذا الذى تدعوه بيتي؟ لماذا تقول بيتي؟

كان لى بيت . كان لى بيت أعود إليه ووطن . لم تمد يدها  
إلى الصحيفة ولكن إلى أعمال شكسبير الكاملة وقرأت له من هنرى  
الخامس، وهى تبتسم ابتسامة صفراء ، مغلولة : "من أمتي؟ ما هى أمتي؟  
هى خسيصة وحقيرة وهجين زائف ، وضيفة ندلة! ما أمتي من ذا الذى  
يتحدث عن أمتي؟"

أخذها بين ذراعيه يهدئ من روعها ويقول :

- أنا لا أعنى وطنك يا أميرتى ، أنا أعنى بيتك حيث أنا .

ولما نظرت له كأنه غريب تلقاه أول مرة تورط فى الكلمات :

قال : حيث أهلك .

فردت : وما الفرق؟ وبقي إلى أن نامت .

كانت مصر تسرع نبضاتها فى الأخبار ، تمسك أنفاسنا . الأصوليون  
الاسلاميون ، وأسماء كثيرة وطلبة وأساتذة وضباط وعساكر . شنقوهم .  
وتقرير الهى بى سى يقول : القاهرة هادئة أم تراها لا مبالية؟ القاهرة سمكة  
بالميونيز على غداء مصرى أصيل لوفد من الأجانب .

يوم الأحد جاءها على الدراجة وضحك قائلاً :

- هيا سوف أصحبك إلى أمتك ، أقصد إلى بيتك .

وضحكت كانت تلبس السواد وتستعد للذهاب إلى السفارة المصرية  
في دانلىرى لتقديم واجب العزاء فى مصرع الرئيس المؤمن : محمد أنور  
السادات عندما وصلها نبأ وفاة أبيها ، أم أن عينها التقت وعينى البحار  
ذاهباً إلى البحر فى القارب الخشبى الصغير .





## الطريق إلى سانت باتريك

في الغرفة الصغيرة في الطابق الأول من المنزل رقم ١٧ طفق المصباح.  
الأوراق التي كانت مبعثرة للممت وامتلات بها أكياس ورقية كثيرة .  
الأوراق ممزقة بعناية فائقة . ها هي أمثلة الحلم . ماذا كان في الحلم؟  
ولماذا بدأ بصلاة الرب ، وكيف انتهى مقطوعاً إرباً في أكياس تحملها الآن  
بيرنى (سيدة النظافة) إلى الزبالة؟ مقاطع صغيرة بقيت في الدماغ . مقاطع  
من رسالة طويلة كتبت خلال مايقرب السنة . تتردد فيها جملة هي معناها  
الأصلي وأطروحتها الأساسية : "كيف يتسنى لك أن تفهم؟" .

" كيف يتسنى لك أن تفهم ، والصوفي الوحيد الذي تعرفه باكستان  
لا يقدر على الصراخ في وجه خروف : بآآآه . مثلما يصرخ أطفال الإله  
الأقل شأنا ، البكم والصم ، في المسرحية . أرأيت كيف أحب الاستاذ  
تلميذته الخرساء؟ أرأيت كيف علمها سماع الموسيقى؟ وسميت الصوت  
المروع الفظيع الذي أطلقتته في احباطها وغضبها من قدرها الأترش؟ هي  
أنت وهي أنا . بل هي أفضل . في حال أفضل مني ومنك . هو تعلم لغة  
الصمت البكماء ، ولكن في النهاية كان هذا هو كل ما عليه تعلمه ، كي  
يعيش معها في عالمها . هذا في المسرحية بالطبع . وبعد أن ينتهي العرض

لو كان الممثل الناطق يحب المثلة الخرساء ما عساها كانت تكون عليه حياتهم؟ أى قدر من التضحيات كان يتوجب عليه كل يوم حتى لا يؤذى مشاعرها؟ أى قدر من حياته الناطقة كان عليه طمسه أو نسيانه؟ وأى قدر من الشك كان سيتلاعب برأسها عندما يخرجها إلى الناس ويسمع هو ما يقولون وتنتظر هى أن يترجم لها ما فاتها من حركة الشفاة؟ لم تكن لتتواصل إلا مع من هم أرهف وأكثر حساسية من الصمت . أنا وأنت أيضاً هكذا . أحيا معك بما أظن أنه كلك ونصفى أنا . ونحيا معي بكلى وما أظن أنه نصفك أنت . نصنع لأنفسنا عالما فى المنتصف من تداخل عالين لكنا نظل نحن إلى الراح الأكبر ، حيث الناس لا يبذلون الجهد لفهم أو إساءة فهم بعضهم بعضا . حيث يستطيعون الثقة فى حدودناهم ويردون الأفعال وفقاً لخرائطهم الخاصة فى الوجدان . حيث لا مجال للتلاعب إلا بالألفاظ ، لا يستطيعون ادعاء الجهل الطيب إلا فى أضيق الحدود . خرائطهم خاصة جداً . هى خرائطهم بوصفهم أفراد ، أناس ؛ لا أماكن جغرافيات بأسرها وتواريخ شعوب وتراكمت كراهيات فى الصحف الرسمية .

ولكن كيف يتسنى لك أن تفهم . أن تفهم بالفعل . أن تفهم بكلك . فالجغرافيا والتاريخ والمدينة فى صفك ، وفى نهاية المطاف ومهما كان فإن هنا عالمك كأمر مفروغ منه لكنه ليس عالمي سوى بالتبني ، بمدى

ما يستطيع أن يتبنانى ، فهو ليس غريباً علىّ ، أنا الغربية عليه وأى قدر  
من التعالى أو تجاهل تلك الاشارات المجاملة أحياناً ، المحقة أحياناً ،  
تسربل فى فضول شرير أو طيب ، لا يغير من الأمر شيئاً . أحمل عرقى  
ودينى وكل جوازات السفر المصرية والعربية المسلمة ، مؤشّرة بكل  
ما أتخيل أن الآخرين تعلموا أن يتخلّوه عن بلادى ، فى النكات والمزح  
والكاريكاتور فى الصحف وأنزل لأشترى الخبز أو اللبن من البقال . كائن  
اللبس فستاناً للسهرة وحذاء مرصعاً ، وأثمن جواهرى للذهاب إلى نزهة  
على دراجة فى الريف . أنا أعرف أن العيب فيّ أنا وعلىّ أنا يقع عبء  
التصل من هوىتى ، أو التصرف وكأني أنا أنا فقط ، لا أهل لى ،  
ولا وطن ، لا ذاكرة لى ، ولا حنين إلى مكان كان عالمى كأمر مفروغ منه  
وبوصفى أنا فقط لن تضربنى النكات ولا يلمسنى الهزؤ ولا أتأثر بما يقول  
محدودو الأفق ، فلماذا أتأثر؟ لم يضربنى أحد على يدي للمجئى هنا ،  
فلماذا أحمل أحداً تبعة مشاعرى؟ ولكن . تذكر الأفارقة؟ قلبى يذهب  
لهم ، وأنا أراهم فى الفناء وألحظ ما قلت يوماً ، وقد علّق سكير عتيد من  
رواد حانة أونيل على ضعف الأفارقة أمام الويسكى : "أنظرى ،  
يتجاهلونهم وكان بهم برصاً . لا يلقى عليهم تحية الصباح سوى" . لماذا  
شعرت يومها أن حبك لى يربعد منبعه بمكان يوقفك فيه أحدهم ليشد  
على يدك مهنتاً اياك على سعة أفقك ، وسماحتك .



أنا أيضاً أفريقية . لماذا؟ أظن أنا شيئاً قومياً يحال إلى قارة بأسرها ،  
أو وطن أكبر ، أو حضارة أقدم؟ وتظل أنت روجر سكيلتون فقط .  
ولو سئلت عرفتكَ : استاذ منطق وعلم نفس ، يدرس فرويد و"لاكان"  
في ترينتي كوليدج . ولو أصروا : من الشمال . ولو علقوا وقد عرفوا من  
اسمك : بروتستانتى؟ قلت : وماذا يهم .

أمثل هذا هو ما كان يستدعى حديث الفروقات : نحن في مصر .  
الناس في بلادى . وأترجم لك الأشعار ويظل السؤال معلقاً بعد الحديث:  
من "نحن" هؤلاء؟ أى "ناس" بالتحديد فى تلك البلاد . وأنا هم ولست  
هم . أنا نحن وأنا ، أنا فقط .

أشياء شبيهة ، وأوراق كثيرة ، كثيرة مزقت على مدى ثلاثة أيام .

أوراق لم تكن تصلح . كذب . فقط لم أكن أعلم أنها تصلح . كل  
ما فى الأمر أنها كتبت بالانجليزية . وكنت أخاف ألا تصلح الانجليزية  
للصدق ، أو للكذب . فهى لغتى وليست لغتى . لهذا أحببت بيكيت  
وجويس؟ وأحببت جويس أكثر مما أحببت بيكيت؟ ومن بعدهما لماذا  
أحببت أليوت كل هذا الحب :

أبانا الذى فى المنفى

علمنا أن فتمم والا فتمم

علمنا أن نسكن في هدوء ..

نعم قتلت الناس جميعاً . من يتلف هدايا الحكماء كمن قتل الناس جميعاً ، وعليه أن يرضخ للعقاب . أخرست آمنة ذات التسعة أعوام بعد أن أعطيتها صوتاً ، خنقتها وقتلت مريم الصغيرة بعد أن رأيت دموعها تنهمر فوق الصنداي تايمز . وقبل هذه وتلك قطعت كيمي أربعة عشر قطعة ، وألقيت بأشلائها إلى سلة المهملات . كان جديراً بي أن أرهق ولكن كان أجدر بدلاً من طلب العون الجبان ، أن أنهى حياتي . ربما أنهيت حياتي بطلب العون .





## سانت باتريك

بعد برهة انفرج الظلام ووجدتني في عنبر طويل نائمة في سرير حديدي وفوقي بطانية صوف خفيفة وجو الغرفة بارد فانتابتني قشعريرة . ثم انفتح باب في أقصى العنبر ودخل منه نور دافئ وظل امرأة في ملابس التمريض . أغلقت الباب وراءها ثم أضاءت مصباحاً صغيراً على مكتب في نهاية العنبر بجانب الباب وجلست وراء المكتب تكتب . ما إن أضاء المصباح حتى انتبهت أن هناك امرأة نحيفة جداً ترتدى قميصاً من الدمور أو السيل البيج ، له أكمام طويلة ، عقد في شرائط من الخلف . شعرها ذهبي أشهب يكاد يكون أبيض خالصاً لولا الهالة التي صنعها حوله النور . كانت رائحة غادية تزرع المر بين صفوف الأسرة وتلمس كل سرير تمر به . عندما مرت من أمامي سمعتها تكرر كلمة لم التقطها وشممت رائحة غريبة . رائحة الشيخوخة ظننت بداية؛ عطانة ماحول الفم والآذان وتنبعث من فروة الرأس ، رائحة تصيب الشيوخ الذين لا يحتفظون بتوهج أذهانهم .

فيما بعد أدركت أن تلك الرائحة ماهي إلا رائحة الجنون . سوف أشمها تنبعث من روبن وايت ذات الثلاثين عاماً . رائحة اضمحلال العقل

وتعفن الذاكرة فكنت أصر أن أتحمم ثلاث مرات يومياً ، وكان ذلك يصيب الممرضات بالهلع .

سركت سريري فوجدتني أرتدى جلباباً مثل الذى ترتديه العجوز . وتأكدت من صدق النبوءة . توجهت إلى الممرضة فى آخر الغرفة وراء المكتب فرفعت عينيها إليّ فى بطاء مترقب وبها غضب يتجمع حول الفم ، قلت لها إننى أشعر بالبرد ولم تجاوبنى . استدارت حول المكتب وأخذتني من يدي حتى سريري وأدخلتني السرير وأحكمت حولي البطانية الصوف الخفيفة وظللت أرتجف حتى غلبني النعاس .

فى الصباح وجدتنى فى غرفة بها سريران فقط كان سريري بجانب السنافذة وعن يسارى رقدت امرأة لها وجه طفولى جميل ، بيضاء البشرة وشعرها أسود فاحم ولها عينا خضراوان شديتا الخضار . جفوها منتفخة محمرة كأنها قضت الليل تبكى . ابتسمت لى ابتسامة وردية صغيرة فمت عن أسنان بيضاء لامعة وقالت :

— أنا روبن وايت .

كنا فى ديسمبر ، وظننتها قزاً ، أو تحرف .

تلك السنة نزلت الثلوج على دبلن ، فرددت بعدوانية :

— وأنا روبن رديربست .

شهقت ، وكأنها صدقت ولما لم ابتسم أعطتني ظهرها ولم تنبس بقية اليوم . فيما بعد تحدثنا كثيراً .

دخلت الممرضة بصينية كبيرة عليها براد شاي وتوست وزبدة ومربي  
البرتقال وطبق من الكورن فليكس بجانبه لبانة كبيرة من الفخار بها لبن  
بارد وسكرية بها سكر ناعم . وضعت الصينية بجانب سرير روبن على  
منضدة الدواء المرتفعة وجذبت جزءاً من السرير فخرجت صينية عريضة  
محمولة على ذراع معدني ولمست كتف الفتاة بيد حانية وقالت :

- افطارك ، هيا ، كوني بنتاً طيبة .

كنت أتابعها فابتسمت وقالت :

- بعد العلاج .

لم أكن أشتهي الطعام ، ولم أرد ، ولم أسأها :

- أى علاج ؟





## أمثلة النرجس

من بين الأوراق التي مزقت كانت حكاية حب يانس . ولأنها بدأت يائسة كانت بالفعل حباً ولم تختلط بأى من الأمور التي تحول الحب نحو الواقع العملى . كان حباً بلا حساب . فى الأيام الممطرة كانا يوقدان المدفأة فى بيته فى دانليرى ، على البحر ، يشربان النبيذ ويستمعان إلى الموسيقى وينظران إلى البحر من وراء الزجاج يزد ويرغى وإذا اشتعلت رغبتهما مارسا حباً طويلاً بطيئاً وكأنهما يلتقيان فى أعماق رحم كوى لم يسم أحد مفرداته بعد . كانت أياماً يرقمها الصمت . فهم عميق بلا مطالب أو توقعات . إلى أن كان يوم ، نظرت كيمى من وراء الزجاج وبان الهلع فى عينيها . فى لحظة كان بجانبها يسأل :

- مالك ؟

كانت تنظر إلى الأمواج ، عروفاً أحصنة تجرى ، تدك الرمل ولا تصل إلى حيث الزجاج .

- عيناى تخدعانى .

رد : يحدث . لا تخافى .



كانت الفكرة قد بدأت تتجمع حول كلمات قيلت في اليومين الماضيين . في البداية تنجذب الكلمات بعضها إلى بعض بسبب الشبه لا أكثر : الأمواج ، مود ، جون . ثم تتضاعف وتتداخل مثل أهليجات الذرة : موج موف موت ، إلى أن تتبلور تماماً : موضة ، ذهبت لأنها كان يجب أن تموت . درس الحساب ومود تقول على العشاء البارحة :

you think I'm just a pretty face!

مود قبيحة . ليس هذا هو القصد . فما من انسان قبيح إلا إذا كان داخله قبيحاً . المعنى الآخر هو أنها جميلة جداً ولكنها ليست جذابة ، هكذا يقولون . جمالها الداخلي لا ينضح على وجهها . لا يخطر لي أنها قهراً من نفسها هكذا . لا يمكن . هي قهراً مني . تعتقد أني أتصور نفسي جميلة .

أمام البحر أتذكر نبتيون الذي كان يملأ خيالات طفولتي ، وألوح له وفهمت لأني تطرعت وحكيت لها عن مس ديانا وكذبت وقلت انها لم تكن سوى وجه جميل كان على أن أدفع الحساب في الترو واللحظة . ما عقاب الكذب ؟

عندما جاء من بيروت يحمل الورود والهدايا ولم أفتح له وكنت أعلم أنه هو بماذا بررت له غيابي؟ وماذا قلت له في اليوم التالي على الغداء؟ كم من الأطفال أبكيت ؟

فى لفستين ، تكون فرص تشابه الكلمات مضاعفة . روجر لا يعرف العربية . بعد يومين من الحب ، والنبذ ، كان قدره امرأة تموت برداً فى سريره . لا تحادثه ولا تريد أن تقول ما بها . كيف لا يدرى ما بها ، هي التي لم تكن فى حاجة إلى الحديث معه سوى فى وجود غرباء .

يحضر لها أكلها فى السرير ، ويسأل كما يسأل الناس ، فى العادة أحباءهم :

- هل أغضبتك مود؟

وتستجمع كل شجاعتها من قلب الشفقة على نفسها من الموت ، مع النفس التالى ، وقلبها يدق بعنف :

- لا ، لا مود جميلة جداً لا يوصف .

فيضحك . وتؤكد هي أنه يظن أنها تتحدث عن نفسها .

ويترف دماغها من أثر الشظية البللورية . فتربت على كتفه وتبتسم ابتسامة مواسية . لا مود .

الموضة . عندما كان أبى يسافر ، كانت مصر مغلقة تماماً . وكانت صديقتى يفصلن فساتينهن عند خياطات يأتين إلى البيوت . أنا كنت ألبس الموضة ، فى الوقت الذى تظهر فيه فى لندن وباريس . وأقف أمام المرأة بالساعات أتحضر للذهاب إلى النادى يوم الجمعة . أنا لم أحب أحداً . والآن أنا متأكدة أن أحداً ما كان يمكن أن يحبني . كيف يحب أحد الموضة . أنا موضة قديمه . رأسى موضة قديمة .

أحب أن ينتبه إلى الرجال . أهتم بملابسى وأعتنى بمظهري وأريدك أن  
تجبنى رغم ارادتي . أن تصر على الزواج منى رغم رفضى .

I'm just a pretty face

ولذا عندما تدق جرسى فى المرة القادمة لن أفتح لك الباب ، حتى  
لا ترى ماذا فعلوا بوجهى عندما أخذونى "للعلاج" .



كان الأطباء قد نصّحوا من زمن بضرورة استخدام العلاج  
بالصدمات الكهربائية . وجاء أخى خصيصاً ووقع على الأوراق بالموافقة .  
أسلمت ذراعى للمرضة فأدخلت إبرة البنج إلى العرق النافر فى الزراع  
اليمنى . وقبل أن تسوخ روحى بفعل البنج ، سمعت آمنة تقول على  
مقربة من أذنى :

- ماتبصيش لروحك فى المراية كثير . إلى يبص لروحه فى المراية كثير  
يتجنن :

وشعرت بهم يفتحون فمى ويدخلون به لساناً جليدياً . يقال أنهم فى  
هذه الأحوال يوثقون الأطراف ويضعون على الجبهة تاجاً معدنياً يصلونه  
بالكهرباء ويضغطون على المفتاح كما محسوب من الفولتات حتى  
لا يميتونك قبل أن تموت .

فتحت عيني فاذا إطار من المعدن المدهون بالأبيض ، تملأ فراغاته ستائر بيضاء شدت من أعلى إلى أسفل في طيات مستطيلة منشأة . نظرت عن يميني فوجدت النافذة . لم أبرح الغرفة اذن؟ أم أننى بارحتها ثم عادوا بي إليها؟ ولماذا هذا البارافان ، ماذا كانوا يفعلون بي؟ هممت أن أنزل من سريري وداخلي يغلى غضباً وخجلاً : ماذا كانوا يفعلون بي؟ ماذا كان يستدعى الحجب وراء بارافان؟

ما إن نزلت حتى ترنحت واصطدمت بالبارافان وشعرت برأسى يكاد ينفجر من الصداع . عدت أدراجى أتخس موضع قدمى وقد أصابنى عطش شديد . دخلت ممرضة بسرعة وكأنها تعلم أنى نزلت من سريري وقبل أن أحاول الصعود إليه مرة أخرى كانت يدها تساعدني برفق وحزم ووجهها حينئذى تماماً . أحكمت حولي الغطاء وتركت الغرفة بنفس الكفاءة والدقة في الحركة التي دخلت بها .

تكررت صدمات الكهرباء . وفي يوم سمعتهم يقولون "ليثيوم" فنظرت إلى روبن ، وكانت تهز رأسها يميناً ويساراً : لا . ثم قالت في صوت واهن :

- ينفخ الجفون ، ويزيد الوزن . يجعلك تبدين كسكير عجوز .  
وراحت تتلمس أنفها .

لو كانوا أعطوني ليثيوم ما كنت أدركت . كانت الممرضة تمجئ  
في موافقت بعينها وفي منتصف الليل كذلك . تحمل كوباً بلاستيكياً  
صغيراً شفافاً وكوب ماء . تمد يدها بعدد لا يحصى من الحبات في مختلف  
الألوان ولاتذهب حتى تتأكد أنى ابتلعت آخرها : الحبة الوردية  
الصغيرة .



## بيت أبى

طريق العودة شاق وطويل . وتفاصيل الدواع كثيرة . ألملم أشيائى  
وأعود أنظر إلى الحائط ، ثم أعود ألملم أشيائى . فى النهاية أقرر ألا أبقى  
شيئاً . أصعد على السرير وأنزل بوستر زهرة النرجس برفق . ألفها حتى  
تصير ماسورة طويلة ، وعندما تدخل على بيرى تسألنى إن كنت فى حاجة  
إلى مساعدة ما ، أكون قد انتهيت من لصق حواف البوستر بالسلوتيب .  
أرفع البوستر فى شكله الجديد وأنظر لها عبر الماسورة .

– هذا ما يسمى الرؤية من خلال النفق .

ونضحك على لا شئ .

تزل معى السلم بالحقائب وتودعنى التاكسى المنتظر . فى الطريق  
إلى المطار أشعر بهشاشة كيانى . جسدى رقاً حتى كاد يشف عن الروح  
داخله . لو كانت الأرواح هى التى تسكن الجسد وليس العكس لكان فى  
استطاعة الناس الذين يروحون ويحيئون الآن محدقين أن يشاهدوا صور  
شهرين ماضيين على شاشة الروح التى أصبحها جسدى .

فى المطار أود لو استطعت التحمم . رائحة الجنون تطاردنى ،  
ولا مهرب . وفى العيون نظرات تؤكد أنهم يعلمون أنى خرجت لتوى من  
مكان يفصل ما بين الأصحاء الأقوياء ، ومن يتحملهم الأصحاء الأقوياء  
على مضض . فى الطائرة لا أكل ، لا أنام ولا أدخن . وعندما نصل إلى  
القاهرة وأحمل حقائى إلى الخارج ، أشعر بالحر الشديد مع أننا كنا فى  
يناير . الشمس ساطعة جداً ، ولا ظلال ، السماء زرقها متساوية بلا  
سحب . وعندما يصل التاكسى الذى أقلنى إلى باب بيتنا ، يتسارع قلبى  
ويدق فى رأسى مع النبض فأعزى نفسى بوجه لا تضاهيه الذاكرة بصدى  
كلمة أو صورة تعكس عبر الزمن وتظل مرايا الذكرى محايدة ، ذبقة  
اللون . مرايا تنتظر . لكنى أعاند وآمل . هناك عندما أصل إلى البيت  
سيفهمون . أقفز سلم العمارة درجتين درجتين وأفتح باب الاسانسير  
ويدى ترتجف . أضغط على الزر وعندما أصل إلى الدور الثالث ، تكاد  
روحى تنسرب من ساقى . أصل إلى باب شقتنا وأدق الجرس . أكاد  
أركل الباب بقدمى حتى يسرعوا وعندما تفتح لى آمنة لا تفاجأ  
ولا تتعجب وتبدو متعبة :

— حمد لله على سلامتك يا حبيبى .

واحتضنها لكنها تملص ، تنفى انتماء ما . أم تراها شمت رائحة  
الجنون ؟ ماذا قالوا لها . لابد أنهم قالوا أشياء . فهى لم تسمع صوتى  
فى التليفون ما يقرب من ثلاثة أشهر . وأعذرها . أحمل حقائى إلى الغرفة  
القديمة وأسمعها تقول فى وهن :

- أمك بتعزى ، تتعشى دلوقت ولا تستنيها ؟

اتملاها فى صمت . وزنها زاد قليلاً . هى تأكل اذن . حول عينيها خطوط كثيرة لكن أسنانها مازالت قوية بيضاء ، وتقطيتها صارت جزءاً من وجهها . خيطان طويلان يفصلان بين الحواجب الخفيفة . تلتقى عيوننا فأشبح عنها . أخجل من كل هذا الجمال المروع القاسى القوى ، فأصمت . لكنها تعود ، وقد جمعتنا غرفة الجلوس وحقائب السفر :

- تتعشى ؟

فأرد محاولة استدراكها إلى حيز كان ملكنا وحدنا وأذكرها :

- كنت هناك وجيت ، حتى العشا ما اتعشيت . .

- انت لسه فاكرة ؟

- أمال يعنى انت بس اللي بتفتكرى كل حاجة ؟

مطت شفتيها وغلف صوتها نبرة تهكم متحدية :

- طب احكى ورينى !

- بعدين أقولك .

- ولا بعدين ولا قبلين ، أدخللى اغسلى وشك كده ، وغىرى

هدومك على ما أجيلك حاجة تاكليها . أمك باين عليها حتتأخر .

بعد غيبة عشر سنوات دخلت حجرتى ووضعت حقائى جانب

النافذة وجلست أتتفس المكان . أحصى الأنفاس التى شغلت حجرتى وأنا



بعيدة . كل الحياة التى غُرلت وأنا بعيدة . كل المرات التى رُبِت فيها  
الأسرة . جهزت الوجبات . كل الكلام الذى لم أسمع . كل الحيوانات  
الصغيرة . كل الملابس وكل المرات التى غُسِلت فيها الملابس . كل  
البرتقال الذى عُصر . وكل الاتهامات التى تبودلت ، وكل الكتب التى  
قرأت وكل التذكارات؛ الأنفاس التى زحفت على أماكنى طلعة شمس  
وراء طلعة شمس ، وكل مرة غاب نهار ، كبرت وتنامت وأزاحت أشياءنى  
واحتلت أماكنها . وبدا لى ذلك أنه كما يجب أن يكون . حجرات  
الغائبين حلٌ للمقيمين .

فتحت دولابى ورأيت مدروراً بالثياب . لم تكن ثيابى . جلست بنظرى  
أبحث عن أشياء تركتها هنا إلى أن أعود . ولم أجدها وأشياء وجدتها لكن  
طراً عليها تحول الأشياء التى تبدل ملكيتها

"المج" البلو دلف . فرغ الآن من الأقلام وريش الكتابة لم يعد هناك  
حبر أسود "سكويب" بجانبه ولا أوراق . بجانبه الآن أباجورة من فصيلته .  
كان أحدهم أهدها لى فى مناسبة ما . أمى تقول أنها لأختى وأصدقها .  
لأن الصوت فى دماغى يعقب على منظر الحجرة الجديد مع النبض  
فى الوريد . تخلت ، تخلت ، تخلت . هكذا عاقبة من يتخلون

الكتب على الأرفف اختلفت كذلك ، والعرائس ، والصور  
والبوسترات . أنزلت من فوق الحوائط . غرفتى أصبحت مرتبة ، وبها  
أشياء لى وليست لى . كأن "الهوفر" التى استخدمت فى تنظيف الغرفة

كانت تسحب الروح من أشياءى وهى تسحب التراب ، ماتت الأشياء  
وبقى بعضها جثثاً مَحْطَةً . لو كنت عدت فوجدت أشياءى أكلتها العتة ،  
وملأت أركان الغرفة رائحة تراب السنين ، كنت استعدتها من الإهمال؛  
وكانت تعود وتفسح لى مكانى الذى تركته .

كانت الأشياء حينئذ سوف تستجيب ، فأنا لم أستبدلها . فقط خنتها .  
جعلت منها مهرباً سهلاً وملاذاً متوهماً ، عندما كانت تستعصى على  
الحياة كنت أُلْجأ إليها ، أصفُها ، أتدثر بذكراها قابعة هناك على رف فى  
حجرة بعيدة . لايتبدل مكانها تخدم غرض الاطمئنان النهائى . غرض  
الموت . لو كنت حكيتها ، ربما ما مرضت روحى . لكن الأشياء التى  
نصفها ولا نروبوها تكرر نفسها ، كل مرة ، هى هناك فى المتحف ،  
فى غرفة الصالون لاتبرح ، لاتغادر ، لاتتبدل ، جثة مَحْطَةً لم تحك .

لم يخطر ببالى انى لو عدت إلى بيت أبى يصبح علىّ التظاهر بأنى  
لم أبرحه ، لأصنع حكاية . أن أنصاع لهوفر معنوية ، تشفط روحى مع  
تراب الأسى والألم . تمتص حكايتى وتحتفظ بشكلى وهينتى . لم يُطلب  
منى . لم ينبس أحد . لكن شيئاً ما فى الهواء نفسه كان يقول ، هنا لا نقبل  
سوى حكاية واحدة ، هذا إذا كان الحكى لابد منه :

كان ياما كان فى حاضر الأيام فتاة ذكية ، سريعة ونظيفة ، بريئة إلى  
حد السذاجة أحياناً . قرأت كتباً كثيرة ، لكننا أعفيناها من التجربة ، فلم  
نسمح لها أن تتألم . ووفرنا لها كل سبل العيش فى رغد . ولما أرادت

أن تكمل تعليمها ، بعثنا بها إلى جامعة محترمة في بلد كاثوليكي محافظ .  
كنّا ندأوم الاشراف على حسن سلوكها ، من خلال استاذ عربي جليل  
اختار لها تخصصها في جامعة كان يدأوم هو على الحضور إليها . يطّلع  
بنفسه على كل ما تكتب ، يوجهها وينصحها ويحميها . فتاة دؤوب  
طبعة، محترمة . لم تتسبب يوماً في ازعاج أحد . تذهب إلى المكتبة وتعود  
لتقرأ . وفي المدة المقررة أنهت دراستها وعادت ، ونحن الآن نفخر بها  
ونتظر منها الكثير .

وهكذا صرت أكل بانتظام ، وأنام بانتظام . هذا فقط هو كل  
المطلوب ، هذا فقط وليس حرية التذكر ، أو تلقائية التعبير والكلام .  
هذا فقط وليس الحكاية الشافية . لا أحد يسأل . لا أحد يبدى أبسط  
الدلائل على الفضول . ماذا حدث ، كيف حدث ، كيف لم تستشعري  
الخطر . لماذا لم تتم خطاباتك عن خلل . كيف أخفيت الألم عن صوتك  
في التليفون . لم يسأل أحد . فلم أجب . وبات علي التظاهر . كما هنا  
كما هناك .

أنظر إلى الحائط يرتفع بجانب سريري ، وأرى الآخر الذي يضاهيه  
في دبلن ، خاوياً هو كذلك . الحوائط بلا خرائط هنا وهناك . وأنا لم أعد  
لا هنا ولا هناك . مكان مطهر لا يرجى منه خروج ولا في الخيال .  
ليمبو ، كلمة أوفى لوصف تلك المساحة التي تتخلق عندما يتداخل  
عالمان . أهليج يهدد بضغط شكل انساني يقف داخله مفتوح الأرجل

والذراعي ن، مشدوداً عن آخره يقاوم بكل ما أوتى الا تتطابق الدائرتان  
فتمحقانه محقا . كيف يتسنى لكم أن تفهموا ؟ وقد فرضتم على صمت  
التظاهر بأن كل شئ على مايرام ؟

خريطة المنفى على الحائط لم تكن حيناً إلى الوطن : ولم يكن هناك  
منفى ، كان هناك فقط وطن آخر: تؤهله صورته هو ، ونفاقه هو ومراءاته  
هو ، وصمت تظاهره هو ، بأنه وحده قائم وما كان أبعد من لندن شرقاً  
أو بوسطن غرباً لا يدخل في عداد الجغرافيا ، كم مجهول ، من الأفضل  
أن يظل مجهولاً . وكان الشرط الوحيد هو الصمت والتظاهر بأن هنا هو  
كل شئ .



فرص الاختيار صارت مطلقة: اختارى: كل الأمور متاحة ، اختارى  
من تكوينين . وكان هذا هو الحكم الأصعب . لم أتدرب . لم يعلمنى أحد .  
لم يطلب منى مثل هذا من قبل فى أى امتحان . لم أمتحن من الأصل .  
رخصة القيادة جاءوا بها الى حتى البيت . بطاقتى الشخصية كذلك .  
وجواز السفر . كان كل المطلوب تحت كل الظروف هو الحرص الدائم  
على حساب النفس . دون أن تكون هناك مادة كافية للحساب . ماذا  
يفعل العقل تحت هذه الظروف ؟ يأكل نفسه ، يتغذى على خلاياه الحية .  
يستعيد فرص الحساب المتاحة . يعد الأنفاس ويسمح للوحش أن يتنامى  
داخله ، ويتصور أن الوحش الذى يتغذى عليه هو صديقه وحارسه ؛

يتصور أن الوحش الذى يتغذى عليه هو ضميره وبوصلة فزاده ، ويضيق الأفق :

قلت ، نظرت ، ضحكت بصوت أعلى مما يجب ، تبسّطت مع من لا يصح التبسط معه ، جلست دون أن تضمي فخذيك ، أكلت بنهم ، أدليت برأيك فيما لا يخصك ، تدخلت فى الحديث ، تعاليت ، انزويت .

أثناء المحاكمة تتحول عينا الوحش إلى مرايا صافية يرى المرء فيها نفسه كما يراه الآخرون يصبح الآخرون ضميره ، ويسجل العقل تصوره عن تصوراتهم: كاذبة ، مزيفة ، مدعية ، تعيش فى أوهام من صنع خيالها . متعالية ، مغرورة ، يسجل العقل ، فينقض الوحش على القلب ، يأكله .



فى المحاكمة أسأل: أى لون تفضلين ؟ الأحمر؟ أم الأسود؟ لا أجيب . وإذا أجبت قلت "لا أعلم" . فالأمور التى يطرحونها وقد غلفوا نبراتهم بالخفة واللامبالاة ، لها مدلولات غاية فى الخطورة وهم يعلمون . يودون الايقاع بى ليس إلا . أنا أعلم أن الأحمر هو لون عاهرة بابل ، لون الدم الحار ، وشهوة الجسد ، لون الغواوى المفضل فى قماش الساتان اللامع ، لون الجنس بلا حب .

الأسود للموت ، والهيبة ، الأسود صعيدى صارم . لا يأبه بالعواطف ، لون تطبيق الحدود . فاصل . هو كذلك لون العدم ، لون الكفر والاحاد .

كيف يختار المرء ؟ كيف يرد وقد سلبوه جعران القلب الذى كان يحميه من الوحش فى المحاكمة . الجعران الذى كان رمزاً للحياة ، زال عنه لونه الفيروزى ، سُخِطَ حشرة محنطة لا تذكر إلا عندما يذكر الموت . زال الفيروزى والذهبى والأبيض والطوبى والأزرق ولم يبق من كل الألوان سوى الأحمر والأسود . جهنم والموت : سواد الوجوه ونار العذاب . كيف يختار المرء إذا انتفت الرحمة من قلوب الحكماء ، كيف يختار وهو مشدود فى فراغ ضيق ، أن يقاوم انطباق عالمين على وجوده وأقاوم حتى الرمق الأخير حيث يستعصى النوم ، ويحتل الحلم فى الصحو محل العقل الواعى ، وتم الأقوال عن حياة أخرى لا يفهمها أحد :

- اختارى يا أنت ، يا هم .

- اختارى إما حياتك أو حياتهم .

وأختار أن أموت أن أموت أنا هذا أكثر احتمالاً .

موتى يا أنا ، موتى . عنيدة أنت ومتشبثة . كافرة متطاوله . شيطانة

متعاطمة . تظنين أنك جبلت على الاختيار . موتى يا أنا .

أبتلع الحبة الوردية الصغيرة ويجبى النوم يغشاني . فأطمئن عليهم

وأخاف المجهول . لا أقاوم الموت سوى أنى أخاف المجهول . لحظة

الاستسلام للمجهول . تلك اللحظة فقط أخاف . غير تلك اللحظة

لا يهم . أباركهم قبل أن يغلفنى الظلام . أباركهم لأنهم يعلمون

مايفعلون ، أقرياء يختارون عن قوة وعنفوان ، ويقتلون بالصمت .

الصمت أحد وأنكأ . الصمت سمة الحكماء .

الصمت لك وعليك . إذا تحدثت نظروا بعضهم إلى بعض نظرة عارفة . وإذا لم أتحدث نظروا بعضهم إلى بعض نظرة عارفة .

الآن أنا أكل بانتظام ، وأنام بانتظام ، ولا أحداث أهدأ .

ما الفارق بين أن يحكى لك أحدهم حكاية وأن يصف لك كيف حكى أحدهم حكاية ؟

الفرق هو بين راو يحكى حكاية الصنم ، وبين الصنم . أنا الصنم . أنا المج البلو دلف الذى أفرغ من ريشات الكتابة ونشفت محبرتها ولم تعد بجانبه أوراق . لم يعد ملكى شئ . أصبحت أنا ذاتى شيئاً .

شئ حجرى لامع معتنى به تماماً.. له عينان وأنف وذقن وفم وأذنان ، حاجبان ورموش وشعر ، لا يطيل النظر فى عيني أحد ، حتى لا يرى صورته فى مرآة العيون: شئ لا أكثر . بلا صوت ، بلا حكاية ، بل ، بلا لغة . كيان يسمع ويرى فقط . تحت الملمس الحجرى دماغ يتطاير فيه شرر النيورونات التى لا تهدأ . مفاعل ذرى صغير يولد طاقة فظيعة ، لكن كل تلك الحركة لا تظهر ولا تبين على ملامح الرأس الحجرى الساكن ، الذى حكم عليه بالخرس بعد درس فى الحساب .

كيف يقاوم المراء القدر بالكتابة لو أن الكتابة قدر؟ أمسك بالقلم وتتشابح أمامى الورقة البيضاء ، عليها أحرف سوداء صغيرة منمقة : "مستشفى للأمراض العقلية والنفسية" ، حتى لو كنت أعرف الكتابة ، لغتى لا تقرأ ، كل اللغات أجنبية ولغة أهلى لا ترقى سوى للحكى ، وكل حكاياتى أجنبية ، لو استطعت الحكى . من يسمع ، حتى لو انفكت عقدة

اللسان من الحجر ، كل القصص كتبت . كل ما يمكن أن يقال قيل .  
لم يعد هناك صدق سوى في الصمت . من قمه حكاية مثل تلك :

" كل الأوطان أوطاني ولذا أنا بلا وطن . كل اللغات لغاتي ، ولذا  
أنا بلا لغة . فرد وحيد بلا جماعة ؟ وجماعة ضئيلة تصرخ في البرية؟ من  
يشعل مدفأة في حر ربيع القاهرة . من يشتري الثلج في القطب الشمالى .  
الذين لا يقرأون ولا يكتبون؟ أم الذين يكتبون أجسادهم ذاتها مساحات  
للفهم والتعاطف ولا يقرأهم أحد . خريطة تليق بالمجانين :

المحيط الرمادى ، والصحراء ، الصخر بين الأعشاب، وحقول القطن،  
"شين فين" ، و"فينا جيل" ، أحزاب للتجمع والناصرية ، "كاد ميللى  
فالتشه" ، أهلاً ومرحباً ألف مرة ، صراع الساسة ، هو صراع الساسة ،  
والعنف المسلح والشعر في الحانات ، والخمر في البيوت ، قاعة صمويل  
بيكيت في مبنى الفنون الجديد ومالون يموت ويحيا بلوم بالعربية ، والنهر  
في السماء والنهر في النيل ، القهوة بالكريمة والويسكى الأيرلندى في  
مطعم صغير في القاهرة ، والشحاذ، ن أمام قهوة بيولى في دبلن . الفقر  
هنا والفقر هناك . بيرنى بالكاد تكتب ، وآمنة بالكاد تكتب اسمها ،  
مستشفى جوناثان سويقت ، مستشفى بيهمان ، رحلة القطار إلى دانليرى  
وحلوان والمطر . الكلام الشاطر . وأصابع الاشارة الدامية :

— المرأة المخووتة التى كانت تسكن هنا ؟

— ذات الرداء الأسود ؟



- شيزوفرنيا ؟

- الفتاة التى كانت تسكن هنا ؟

"تعافت" . . قالت بيرنى "سيدة النظافة" بفخر يتخلل خطها الردى  
وكأنها مسؤولة عن صحة كل الناس ، و"عادت إلى وطنها" .

- عادت إلى أمها ؟

أكاد أرى وجهه وهى تفتح له الباب وتدخله الغرفة الصغيرة . وأتابع  
تجوال بصره على الحوائط ، الجرداء الآن . وأسمع صوته من خلال  
خطابها القصير اختصار من لا يكتبون إلا تحت وطأة الضرورة القصوى :

- وزهرة النرجس ؟ هل أخذت البوستر كذلك ؟ زهرة النرجس ؟

لم تترك شيئاً .



## التيه

مددت جسدى على السرير أتأمل الحائط . فجأة فتح باب الغرفة بعنف ودخلت آمنة مقبلة تحمل علبة الخياطة البيضاء القديمة ، فدخلت معها رائحة الملاءات البيضاء وقد حمصتها شمس الشتاء ، والمفارش المنشأة المطرزة بالبرودرى . تدخل معها أيضاً رائحة بودرة التلك والكولونيا ، وأسألها :

- مالك ؟

- أنا برضه اللي مالى ؟

- فيه ايه ؟

- مش عارفه فيه ايه؟ قومي اتأسفى لأملك .

كانت ولاءاتها منحازة تماماً للأمهات :

- صحيح مايعرفش قيمة الأم الا اللي اتيتم .

- أنا مازعلتهاش يا آمنه .

- آمال هى بتبكى من الصبح ليه؟ أبريا اللي زعلها؟ مش انت قعدت

تصرخى فيها زى ماتكونى طرشه . وصوتك جاب آخر الشارع ؟

- زى ما تكونى خرسه يا آمنه مش طرشه .

- طرشه خرسا ، أهو كله محصل بعضه .

تخرج وتحبط الباب وراءها وقد نسيت علبة الخياطة على مكتبى ،  
ولأتأخذ معها الغضب .

افتح علبة الخياطة فتفوح منها الصور . صندوق باندورا تتطاير منه  
كل الشرور . فى صباحات الشتاء المشمسة تجلس أُمى مرتدية جونلة  
صوف وبلوفر فى ركن فى البلكون . ساقها داخل جورب شفاف ، وفى  
قدميها "بانتوفلى" مزين بفروة صناعية بيضاء ، ناعمة . تفتح علبة الخياطة  
البيضاوية وتناول القص .

تقص أشياء صغيرة فى دقة متناهية . أجلس بجانبها على كرسى مقابل  
أراقبها ولما أحدثها لا ترد . بينى وبينها قوام من الزجاج المصقول ،  
يسمح للصور فقط أن تمر ويمنع الأصوات . أسكت وأراقب القص .

النقطة التى يلتقى فيها حد القص بالحد الآخر ، تلزمها أشياء أخرى  
كى تكتمل ويحدث القص . أوراق أو قطعة من النسيج؛ وعلى نفس  
القدر من الأهمية: اليد التى سوف تدخل فى فتحى يد القص فيبدأ خلق  
جديد: فستان أو قميص ، أو عروس ورقية ، أو حتى قلب أبيض  
باهت ، وإلا ما حدث شئ .

اليوم في بيت أبي لا يحدث شئ . أنظر إلى حدى مقص الخياطة ، كل حد ملقى في ناحية . المسمار الصغير الذى كان يجعل المقص يبدو كفكى سمكة مفترسة ، ضاع . وقع ولم يستبدله أحد . قطع القماش في دولاب أمى فقدت قوامها وتراخت . وأوراق اللعب الزاهية . أوراق القص واللصق التى كانت دائماً ملازمة لعلبة الخياطة تموجت ونشفت ، كوردة ذبلت بين طيات كتاب . والأوراق البيضاء في درج مكتبي السفلى ، فقدت تحديها ووعدتها ، نالت منها الرطوبة ، حتى لو قطعت لا يصدر عنها ذلك الصوت الخشن ، قماشتها المنشأة صارت خرقة مبللة .

شئ ما أصاب روح الأشياء . شئ ما ذهب عندما وقع المسمار الصغير من مقص الخياطة ولم يستبدله أحد . تباعدت الأشياء وتراخى نسيج الهواء نفسه في البيت ، منذ مات أبى؛ عندما يتوازى الزمان والمكان فلا يلتقيا ، تنتفى الاحداثيات . عدت لأقيم في التيه . ويتضاعف الفاقد من الكلل ، ويتضاعف الاجهاد . تصبح الحياة قوائم متراصه وتفقد الشفرات حدتها ولا يحدث شئ .

كل يوم نصبحو من النوم . كل يوم نأكل . نستحم . نتحدث بلا حماس . نلهى بالصور تمر أمام أعيننا على الشاشة الصغيرة ، ونستمع إلى أخبار العالم من صوت كأنه هو الآخر فقد مسماراً صغيراً ، فأصبح يحاول قضم الكلمات لكنها تخرج هي الأخرى طرية ، لا قوام لها ، تتراص ولا تخلق معنى ، ومن ورائها تتكرر الصور: السيد الرئيس ،

السيد الرئيس ، السيد الرئيس ، وورود في فارة كريستال طويلة ،  
وكرسيان وطاولة . ولا شيء يحدث لا في بيتنا ولا في بيوت الآخرين .  
وكان الناس كلهم أصبحوا لا يدرون من الحياة سوى تقليد حركاتها من  
ذاكرة تتلاشى . أمس لا ينتج اليوم واليوم لا يتسبب في الغد . المكان  
شاسع ، وتاريخه طويل واناسه كثر . توازيات الزمان والأماكن تكملها  
قائمة ثالثة ، هكذا خطوط مستقيمة : هنا حد مقص ، وهنا حد مقص ،  
هنا أوراق وهنا نسيج ، باراليل ، باراليل ، باراليل ... تمتد القوائم من  
ذهنى إلى خارجه ترصد ولا معنى في ثلاث لغات: مج: شخص سازج ،  
بسيط ، يسهل خداعه لأنه يحفظ ، يصم الدروس صما ، ويكررها وفي  
هذا امتيازه . مُعيد . يخاف التجديد ، ترعبه التحولات ، يركز كل همه  
في قدرته على التكرار والاعادة .

موس: "أو شوكولا" . حلوى من الشيكولاته لا قوام لها ، تغرف  
بالمعلقة ويضاف لها الكريم شائبه نكاية واستزادة من الغيان .

نوطيا: الصيف بطي مثل ذبابة دائخة . الفراغ التام . جراهام جرين،  
والأمريكي الصامت في جزيرة هندية ، مستعمرة ، مراوح الهواء تنز .  
ليس سوى رائحة الخواء .

تلك القائمة: كرهية . القميص كل أزواره مزررة . مزررة . وجهه  
أحمر وشعره أشقر محمر . بياض جلده مسلوخ . في المطار يحمل أمتعة  
كثيرة ، عائداً في أجازة . زوجته عيونها ميتة من الإهمال

الفتوة : شاب أسمر قوى نحيل ، مصرى الجنسية ، عيناه طبيتان ،  
تشوبها لهجة خليجية ويقتل ؟

أبانا الذى : لا يذكر من التاريخ سوى تاريخ الأنبياء .

التوثيق : فى المحاكم للعقارات .

الصحف والمدارس والجامعات ، الشوارع والضجيج ، القمامة  
وروائح الطبخ . والعمارات من الطوب الأحمر . الأبواب حديدية على  
"السلاقون" والعمارات من المرمر الأخضر ، مداخلها شاهقة ومصاعدها  
مكيفة . حد مقص وحد مقص . المسمار نعم وسقط فكاه وتوازيا .

باراليل .. باراليل ..

شاطئ بيانكى فى العجمى ، أمواجه خيولها رخوة ، كسولة ، تميع  
على الرمل بلا روح ، تموت قبل أن تصل الشاطئ ، فى أغسطس . على  
اليسار غابة كثيفة من الشماسى ، وعلى اليمين كذلك . الشماسى على  
اليمين ، مهترئة قبيحة ، يجلس تحتها كلها رجل عائد فى أجازة ، يلبس  
فانلة بيضاء ، تؤكد كثافة شعر جسده الذى يطل ، من تحت الأبط ،  
وعلى الصدر . كرشه منتفخ فوق مايوه لا لون له يؤكد هو الآخر كثافة  
شعر الساقين حتى أعلى الفخذ . أصلع ، ولم تطله شمس اليود بلون  
الصحة والجمال بجانبه امرأة تقزقرز اللب . محجبة ، بيضاء تماماً . وجهها  
بلا ملامح وبلا مشاعر . لا يتحدثان . يشربان المياه الغازية وينظران فى

الفراغ . يشلح الرجل فانلته ويترل البحر كل برهة ويعود يتجفف ويرتدى الفانلة . المرأة تتصب عرقاً ولا تغادر مكانها على الكرسي الخشبي الصغير .

على اليسار الشماسى زاهية . تحتها "كولمانات" زاهية . كحلى وفيروزى وأبيض شامق . ولا يجلس تحتها أحد . الكل فى البحر أو كأنه فى البحر . قُب رائحة المجارى بين حين وحين . عندما تصل الرائحة إلى أنف الفتاة التى كانت قد وضعت الكريم "الكوبرتون" على جسدها المشقوق وجلدها برونزى تماماً يبين معظمه من بين قطعتى المايوه البكىنى الصغير جداً ، للمرة العشرين ، قُب واقفه وتمد يدها إلى شنطة كبيرة فى نفس لون المايوه ، تخرج منها قطعة قماش ، فى نفس ألوان المايوه كذلك ، تلفها حولها فى لا مبالاة ، وتذهب إلى "الكولمان" وتخرج علبة بيرة "هاينيكن" مثلجة ترشفها وهى واقفة . تخرج من الشنطة "سبادرى" بيضاء مريحة تضعها فى قدميها ببطء وتلوح لأحدهم وقف يتحدث وأحدهم على الشاطئ ثم تأخذ الشنطة وتمضى فى اتجاه الشاليهات الخلفية . عندما يفهم الرجل أنها ماضية ، يوقف حديثه مع صاحبه لحظة ويلوح لها بأنه سيلحقها ، ويعدل من وضع المايوه ، "الريبوك" .

عن اليمين يقف الأطفال يرقبون الأطفال الملتهين عما حولهم بلعب الشاطئ فى ألوان زاهية ، يغلفهم صوت بائع الفريسكا ينادى من زمن آخر على بضاعة لا يشتريها أحد .

كنت مازلت أحرق في محتويات علبة الخياطه التي نستها آمنه  
في غرفتي عندما وصلني صوت أمي عن بعد تقول:

- كيمي متعبة قليلاً يا أمينة . . اذهبوا أنتم .

في قفزة واحدة انقضضتُ عليها:

- لماذا تصرين على إلغائي هكذا؟ لماذا لا تسأليني إذا كنت أود  
الذهاب معهم إلى الشاطئ؟

- لأنك كل مرة تذهبين تعودين متعبه وتمضين أياماً تبخلقين في  
السقف .

فأصرخ فيها ، لكن لسانى يتمرد على صياغة الهواء حروفاً فلا تنطلق  
من جوفى سوى آهة طويلة حانقة مغلوله وتبكي أمي .







## المدينة

- حضرتك درست الموسيقى وتخرجت في قسم الأصوات  
بالكونسرفاتوار .

قالت المذيعة ، فرد الشاب تلقائياً:

- ان شاء الله .

الوقت اختلف . غبت عشر سنوات . لا بد أن أشياء تبدلت . إذا  
أصبح الناس يقولون ان شاء الله عن البارحة . لا بد أن زماناً ما ومكاناً  
ما التقيا وحدثت أشياء والا كيف أصبح الناس يتحدثون عن المستقبل  
في صيغة الماضي ؟ وأصبح لا يحدث شئ .

بيت أبي هو بيت أبي . لم يتغير فيه شئ . وغرفتي هي غرفتي . المج  
البلو دلف ، والأباجورة ، والتلفزيون أرفف الكتب والسريرين "الكاني"،  
والموكيت والبلاكار . وكان العيش هكذا ممكناً إلى حين . وبعد حين  
أصبح العيش هكذا غير ممكن . كان لا بد من معين . الخطابات لشفون ،  
وايزابيل ولي هوا والصلاة :

"نعم أصلى . أنت تظنين أنني أصلى لأخدع نفسي بطمأنينة زائفة .  
تظنني أصلى بدلاً من أن أواجه الواقع . بدلاً من أن أثور . أغضب .

أفعل شيئاً مهما كان حقه . ربما ، فحتى صلاتي ... كيف أصف لك صلاتي . شئ تافه وحيد . صوت خافت ضعيف ، لا يؤثر في شئ ولا يغير من شئ ، لا يوهني حتى أنا ذاتي إنها تأتيني بنفع ما ، فقط تجبرني على القيام بحركات تدرب عليها في الصغر . هي ذكرى الصلاة تفتعل ولا تخدعني وأعلم أن الايمان لا يستعاد بالصلاة لكني أكررها تشبهاً بالذكرى .

أيام كنت أتدرب على عدم الحياء عن الصراط المستقيم على بلاط الرصيف وأنا عائدة من المدرسة وقلبي يدق ، والحياة تحدث بقوة ولها وقع ونبض . أحياناً يتناوب سام عظيم فأكف ، ولا أبارح سريري أيام بطولها ، لا أكل ولا أنام ولا أستحم . أستلقي على ظهري بالساعات أبحلق في السقف وأستعيد ببطء الموت الذي ماته مالون على يد صمويل بيكيت . كم كنت أمل وأنا أقرؤهم ، كل الذين وصفوا الحياة التي لا يحدث فيها شئ . كم سئمت كتب بيكيت وسارتر ، وجيد ، وجويس وكم زاد كرهى لهم وأنا أحيا الحياة التي وصموها . كنت أظن أن الكتابة يجب أن تكون احتفالاً بهجة الحياة ، وأن بهجة الحياة تنتظر في العطفة التالية ، لتعلن عن نفسها ويرقص الناس في الشوارع فرحاً بانتهاء الحروب والفقر والمرض في كل البلاد . كنت أظن أن مزاج السأم والغنيان هو شئ خاص بأوروبا وأن أوروبا شاخت واستهلكت عنفوانها وقدرتها على الغناء الطفولي الحر الطليق . ولم أع الدرس حتى وأنا أكتب :

ان الشعراء لا يكتبون عن الأماكن والأوقات وإنما عن نقطة تلاقيها  
في الروح . الشعراء يكتبون من موقع المسمار الصغير الذي يجعل شقى  
المقص فكاً يصنع المعنى ، وأن بهجة الحياة شئ لا يخص الشعراء وإنما يخص  
الحياة .



لا فارق اليوم في الصلاة بالشعر أو الصلاة بالقرآن . العالم أهوس .  
الواقع أكثر مما تحتمل الأذن ويسع البصر . الضجيج هائل ومستمر .  
الضجيج الآن ليس في رأسى وحده . ليس أصواتاً متوهمة تدعونى لقتل  
نفسى حتى يحيا العالم . الضجيج شمل العالم ، أصبح هو العالم . ضجيج  
حقيقى يصم كل الآذان . كلاكسات وميكروفونات وبشر هائمون على  
وجوههم في الطرق . الألوان صارخة والأصوات زاعقة والكل يزاحم  
الكل . المدينة صارت وحشاً تحيا على جسده الطفيليات من كل نوع .  
الديدان في ماء الشرب والنفايات الكيماوية في الطعام ، الأسمنت  
في رئات الأطفال ، والكل يزعق والموسيقى تصخب ، والأضواء تلعلع .  
كأن لحظات جنونى ، أصوات دماغى ، صخب هوسى ، لهاث رعبى  
ووساوسى تضخمت وابتلعت العالم وصارت العالم وانتهى الأمل في لحظة  
صمت :

تقصف فيها "باعوضة طويلة السيقان على سطح نبع ساكن ومثلها يتحرك الذهن على الصمت ، مثل فتاة ترقص على شاطئ مهجور وتظن أن أحداً لا يرقبها ، مثل قيصر في خيمته والخرائط أمامه ، عيناه مركزتان على الفراغ .. مثل مايكل أنجلو معلقاً على سطح كنيسة البابا ، والفرشاة تروح وتحجى في الصمت مثل باعوضة طويلة السيقان على سطح نبع ساكن يتحرك ذهنه على الصمت" .

حتى هذه الصلاة ، التي كانت تدعو الروح إلى الجسد المشوش ، وقديماً من حس الفجيعة ، تطمئن وتعيد العالم إلى رشده بطل سحرها وصارت وسط الصراخ في الشارع والزعيق في الميكروفونات ، مفردة أخرى من مفردات التوازيات التي لا تلتقى . في لحظة تخيلت : ربما في الصلاة القديمة قدرة بعث سحر الصلاة في الروح . الحديد يفله الحديد . الصلاة القديمة في مواجهة طريق التكرار المخدر اللطيف ، تحت وطأة الضجيج ، تبطل الضجيج . فرحت أقرأ القرآن لاهثة والخطر المعهود يحدق باللحظات ، تلسعه سياط الميكروفونات ، المتوعدة بمزيد من الضجيج ، فيتسارع قلبي :

" ربنا لا تؤاخذنا ان نسينا أو أخطأنا ، ربنا واعفو عنا واغفر لنا وارحمنا . أنت مولانا فانصرنا على أنفسنا لو كنا لها ظالمين" .

خطأ : خطأ . وأعيد الكرة لاهثة مرتين ، انصرنا على أنفسنا لو كنا لها ظالمين .

ويعلو صوت حارس التكرار : أخطأت بذلت كلام الله هذا جرم  
عقابه لا لبس فيه ولا ريب ولا يلتفت في العقاب عليه إلى النيات هكذا  
نزل العقاب ، وصار الحكم نهائياً ، من وقتها سوف تشكين في أنفاسك  
ذاقها . تشكين في بصرك وسمعك ، والفؤاد لا يتبين لك أبداً الضوء  
الأبيض من الأسود . تظلين هكذا تتأرجحين كل نفس تأخذين هو لك  
أو عليك . يحسب ما عليك فقط ، بيت أبيك تذكّار ليس إلا لأيام ولت  
ولن تعود ، غرفتك في بيت أبيك ، سكنى مؤقتة لا تملكينها وإلى أن  
يتسنى لك الرحيل . مدينتك أصبحت ليست من هذا العالم ، وبلادك ،  
ماكنت تقولين له "وطنى" ، صحراء قفراء . وأحياناً فتاة سمراء خجلانه ،  
ادخلوها بسلام آمنين . نساؤها لعب ورجالها عبيد لمن حكم غطى  
وشك يا مرة . يا حرمة . اخفضى صوتك يا عورة . غضى البصر عم ؟  
عم أغضى البصر ؟

وجاء صوت أفرغ كل ما برأسى من أصوات :

- عن كل شئ .



## الحكايا

الحكايا دائما للاستشفاء . الحكاية لا تروى مرتين ، حتى الكابوسى منها ، لكن الأشياء التى نفقدها روحها ، نصفها ولا نرويهها تكرر نفسها وتضمن الاطمئنان التام ، كل مرة ، هى هناك فى المتحف ، فى غرفة الصالون لا تبرح ، لا تغادر ، لا تتبدل ، جثة مخنطة لم تحك . ما كان يتسنى لى أن أحكى والخوف من الكذب ، جعلنى مضغة سهلة لمن يسترزقون من الكذب ، ينظفون العقول من أوساخ الذاكرة وهم يعلمون ، ولا يظرف لهم رمش . حتى الآن أخاف أن أذكرهم بما كانوا يستحقون ، فيكذبون ويصدقون ، من البيت للمكتبة . لاتحادنى أحداً . لا تخرجى مع أحد لا تتزاورى . لاتشاركى . لاتكتبى حرفاً إلا بعد أن ترىنى إياه . أنا استاذك ، الآخر هذا بالاسم فقط . كل يوم يدق جرس التليفون فى الحادية عشرة مساء . كل يوم اثنين تجئ الزهور ، عبر خمسة آلاف ميل ، حتى باب بيتى . والخطابات . الخطابات تحوطنى وتحمنى ، من خطر لا أدرى كنهه . لماذا كل هذا الحرص ولماذا عينوا لى هذا المشرف بالذات ؟ كلما تحدث بضعة كلمات قال : تعلمين؟ وتحمر وجنتيه وتضيق عيناه الضيقتان أكثر . وكنت فى البداية أقول : نعم ، وأحياناً : لا .



ولم يكن ذلك يعنى شيئاً لأن "تعلمين" تلك كانت لزمة ، يرقم بها الكلام وينقطه ، وعندما أستعيد ما قال ، أعرف أنه لم يقل شيئاً . واحد يعيش في قارة أخرى ويقول: لا تعطى أحداً ما تكتبن إلا بعد أن أراه أنا ويسيسجنى بالحب والغيرة ويمعنى أن أحداث أحداً . وعلى بعد خطوات استاذ آخر لا يقول شيئاً . لا يمد يد العون ، وعندما ألقى عليه تحية الصباح في الفناء لا يرد . وأتساءل: لم؟ وبين هذا وذاك دمغة الدروس القديمة في الصغر :

- الأستاذ لا يناقش . المريد لا يبدأ بالكلام . الرجال قوامون على النساء ، لأن النساء هن نصف عقل وجسد تام ولذا فلهن أيضاً نصف دين . وأبي يقول عن الرسول عن عائشة: "خذوا نصف دينكم من هذه الحميراء" . ويضيف في لوزعته المعتادة: يا جحشة !

وبين هذا وهذا وذاك تطل من بين طيات الكتب حروف مفجعة ، تعكسها العيون حول مدافى الصداقة المتوهمة تنفى وتلفى وتسى وقرأ :

"يا لها من حياة ، حياة النساء المسلمات . ياله من دين ، دينكم يسويكم كأسنان المشط ، لا يكاد الواحد فيكم يعرف الفارق بينه وبين أخيه يسجدون أمام الكعبة سجدة رجل واحد . فاشست . نازىون . أنتم كما كان البعض هنا ، ولكننا تخلصنا من كل هذا الآن . انظروا إلى أنفسكم . تذكرونا بالذى مضى . صورتنا القبيحة في المرأة . كيف

يتسنى لك أن تفهمي؟ أنت لم تعيشي الحرب في أوروبا . لم تصطك  
أسنانك من البرد والجوع . لم تفقدي أحياء في أوشويتز" .

لماذا لا يفهم الناس الشر إلا في لغة أمهم؟ الأخبار الدامية من قم  
وتبريز . "جواز سفر" دموى هذا الذى يحملون . وأدافع . جواز سفرى  
عربى . تكرهون اليهود . عنصريون . جواز سفرى مصرى . أدافع . عما  
أدافع . كل ولاءاتى مدانة مسبقاً . عما أدافع . جواز سفرى؟ لغتى؟  
دينى؟ وأدافع: دين قام على دينكم ، هذا هو كل ما فى الأمر .

وفى لغتى حتى الدفاع هكذا هرطقة وفى ذاكرتى لم يتفوه أحد بمثل  
هذا . ولا أستطيع انشاء شخوص مشخصة أحملها مثل هذا . كل انشاء  
من الخيال وكل الخيال كاذب وأنا لا أريد أقل من الصدق والروايات  
كثيرة وفى لغتى الروايات لاتروى من الخيال ويوثق لها: صحيح ، ضعيف  
وهكذا أما الرسائل فوثيقة الصلة بمصالح الدولة مترامية الأطراف ولذا  
فهى مراقبة .

- أنا لا دين لى قالت شيفون ، وهى تعيد كتاب ادريس شاه إلى رف  
مكتبتى . أنست لا تصدقين تلك الخرافات بالتأكيد؟ ونظرت لى نظرة  
متشككة .

بعد أربعة كؤوس من البيرة السوداء ، ضَحِكْتُ ضحكة صفراء  
قصيرة :

- أنا أفهم ، فقد اضطروني للزواج في الكنيسة . أدت ظهري لكل  
إيماناتي . اتصلت من كل الغضب ، وتحليت عن كل ما آمنت ، حتى  
يختموا على أوراق زواجي ختم الاعتراف . حتى لا يكبر أولادي لقطاع .  
أنا أحب الأطفال كثيراً .

كنا نتحدث عن مجتمع ترينيتي ، وإيرلندة جيمس جويس ، ضيق  
الأفق وتعالى الانجولو إيرلنديين . طبقتهم القميئة ، واحتقارهم لغير  
البروتستانت .

فقلت : نعم أعلم .

ولما جاء هشام إلى دبلن سعدت كما لم أسعد من قبل في هذا المكان ،  
جاء من يفهم أن الاسلام ليس الفاشية ، ويعلم أن بروكلمان متحامل  
بلا سبب واضح ، وان مصر ليست ليبيا ، وليست طهران ، ويعلم  
في أى السياقات قيل عن النساء انهن ناقصات عقل ودين ، ولما انتفى  
السياق كيف ظلت النساء بلا عقل ونصف دين ؟ فأسأله :

- ماذا أتى بك إلى إيرلندة بالذات ؟

- أنت ربما . قال في ترده المعهود .

- ستبقى ؟

- سنرى ، ولم يفصح أكثر من هذا .

وجد عملاً وبيتاً ، بلا ضجة كبيرة استقر أو بدا كأنه استقر . يمر على بعد العمل ونذهب إلى السينما أو المسرح . نقرأ ونتحدث أحياناً حتى الصباح ونعلم أن كل منا وحيد وحدة لاتربنها هذه الصحبة بالذات ، على دفئها وأحياناً صخبها ومحبتها . صحبة لطيفة أكثر من اللازم ، ليست بها عركة ولا تحرك الألم ، لكنها تشجع على خرق الأعراف ، وتذكر بالحدود في آن . لاتدين الشطط وتراقب . تجعل من الرقيب شخصاً ملموساً . له عينان ولسان واذنان ، بعد أن كان قهريماً تخفت طرقاتها أو تعنف دون أن يكون للمطرقة وجه يواجهه المرء ، يحبه ويخشاه ويخشى فقد صحبته ودفء اهتمامه في عالم لا يبالي لأنه مؤقت ويعلم أنه مؤقت على نحو عنيف صداقاته مؤقتة وعداواته كذلك . مثل كل عالم آخر ولكنه هنا متكئ . البيت يشهد مجيئاً جديداً كل يوم ورحيلاً كذلك ولا يفرح أحد ولا يحزن لذلك سوى أولئك الذين تبعد أوطانهم أكثر مما تتحمل ميزانياتهم أسعار تذاكر الطيران .

كنا من نفس المدرسة ، وكان أهلنا أصدقاء . وكنت أسأله أستشف من اجاباته ضوءاً يرشد بعد أن زالت عن الطريق كل الارشادات :

- بعدما أضرب المرشدون الأجانب عن العمل في القناة ، ماذا فعل

أبرك ؟

ويضحك : فعل ما كان يفعله طوال الوقت : يرشد المراكب .

- بأى لغة ترشد المراكب ؟

- بلغة البحر ، ويرنو بعيدا .

- وصلاح جاهين ؟

يعود إلى وقد فاجأته :

- واية دخل صلاح جاهين ؟

- مش عارفه . أصل الارشادات أصبحت كده ، بلا معنى ،

وأضحك له : مغيظة أذكره : غدر الزمان يا قلبى ماهوش أمان .

وحاييجى يوم تحتاج لحبة ايمان .

قلبي ارتجف وسألنى . . أأمن بأيه ؟

أأمن بأيه مختار بقالى زمان .

يبتسم فى صمت ، فأقول :

- تخاريف ، ماتدقش .

هنا لم يكن أحد يعلق إذا ضحك المرء بصوت أعلى مما يجب ،

أو جلس دون مراعاة ضم الركبتين ، أو أكل بشره واضح ، أو حتى

سكر على الملأ ، أو مارس الحب دون حب .

- انظري ، قال ، ثقافة السوقه هى التى تسود . أفهمت لم يدعونك

"الأميرة" فى الجامعة ؟

- أنت تبالغ ، ثم أنى هكذا رغم أنفى ، لو لو يمهرروا كل خلية  
فى جسدى بختم ما يصح وما لا يصح لاخترت حياة أولئك الذين  
تدعوهم "السوقة" .

- ربما .

- بل أكيد . ماذا أجنى إذا كنت أميرة ؟ أميرة نائمة؟ أولد فينيموى ،  
وأصحو على الموت يقبلنى فأذهب معه ، وأنا بعدا إلى الأبد . ماذا  
أجنى ؟

- الاحترام واسم يذكر بالخير ، وذكرى طيبة لأولادك .

- ثمن باهظ . ثمن أغلى من الحياة ذاتها . أفرغ من حقيقتى ، من  
روحي ، وأحشى بالاحترام . أصير عروساً من القماش ، محشوة بالقش .  
هل حكى لك أمك حكاية ساحرة الشمال الطيبة وحذاء دوروثى الأحمر  
العجيب ؟

تبدل وجهه ، حينئذ ، تباعد ولكنه أجاب :

- رأيت الفيلم .

- رددت ، أنا كذلك .

وهنا بدأ المطر ينهمر بغزارة ويضرب النافذة بعنف ، فقال أحدها:

- There's no place like home





## الخوف

أضع أشياءى بسرعة فى الحقيبة . حافظة النقود ، النظارة ، مرآة صغيرة وفرشاة شعر . تقف آمنة تحديق فى وأنا ألتقط سلسلة المفاتيح ولما تلتقى أعيننا أنصاع لأوامرهما الصامتة . أبحث عن أمى فأجدها قد ارتدت قفساراً أبيض من القطن تزيل التراب من على أوراق الزرع فى الصالون ورقصة ورقة وتتمتم أشياء من تحت أنفاسها . يعلو الحق فى جوفى فأولده زابتسم ، أمى تحاذث الزرع .

— ما تتأخريش . تقول . وتضيف :

ماتسوقيش فى الضلعمه .

المزىل عسلى الشاطى . شاطى بياكى فى العجمى والبحر على بعد أمستار . لكنسنا نجلس حول حمام السباحة الفيروزي البديع . عندما كنا صغاراً كان أبى يبحى بنا إلى هنا . لكن "هنا" كان مكاناً مختلفاً ، يذهب إليه الناس هرباً من زحام الأسكندرية فى الصيف ، ونسكن شاليه على بعد خطوات من البحر أيضاً وبالطبع لم يكن به حمام للسباحة ، ولا كان فى حديقته الصغيرة نخل ملوكى ، وكان مطبخه بالكاد يسع نفرين . هنا



الآن منزل كالذى يسكنه مرتادو الريفيرا الايطالية ، تكاد تنبثق عن  
درب الحصباء الأبيض المؤدى إلى بابه الرئيسى عربية رولزرويس صفراء .  
ما توالست السيارات فى الوصول كان من بينها بي أم دبليو سماوية  
فضية بياين .

يبدأ رزاز خفيف ، ويضحك الجمع الملتف حول حنية فى حمام  
السباحة ، ربما تذكروا عندما كان المطر يهطل فى فناء المدرسة وكم كان  
ذلك يثير فى نفوسنا بهجة ، كأننا منحنا أجازة غير متوقعة ، مع أنهم كانوا  
يجمعوننا من الفناء لربداً المطر وقت الفسحة ، ونقضى "البريك"  
فى الفصل . جمعنا مدرسة واحدة والآن جمعنا ذكريات الصيف  
فى الأسكندرية والعجمى وشاليه مسيو بيانكى ، استراحة الكلوب  
مديتيرانيه التى كانوا يجلبون لها الماء بالعربات من الدخيلة . والبدويات  
بائعات التين فى الصباح الباكر والآن كل هذا الترف ، خلال عشر  
سنوات فقط؟ "الكاناييه" تعلوه طبقات الكافيار الروسى ، صينية الجبن  
تتباهى بالامانتال والبري والأولد أمستردام ، الفوا جرا فى أوانى فورتنام  
أند ميسون الفخارية التقليدية ، والكزوس تفور بكل الألوان: الشامبانيا  
كاسيس ، والنبيذ موتون كاديه ، وفى هذه الساعة من الصباح .

- أيام الله ما يرجعها ، قالت أمينة ، وهى تمد يدها إلى كأس  
الكمبارى بالصودا .

وينظر لى الآخرون يستشفون وقع كلامها على . كنا فى ابريل ،  
وكان سحر الأيام أسود فرددت : حدث مثل هذا بعد أيام الرعب  
فى فرنسا ، ثم اتزنت الأمور .

كاذ أحدهم ينطق ، لكن أمينة وضعت يدها بخفة على فخذه تسكنه ،  
فسكت وتبادل الآخرون نظرات عارفة ، وتحول الحديث إلى الطقس .  
هلّ علينا صاحب البى أم دبليو الفضية ، وكنا نستعد للدخول هرباً من  
الرزاز الذى كان قد بدأ ينذر بمطر حقيقى . دخلنا ، وعلى الغداء جلس  
بجانبى وتعارفنا :

- أنا فلاح من كوبنهاجن ، قال فى صوت سمعه الكل .

- وأنا صعيدية من دبلن . وسمع الكل وساد فضول وتوقع وربما  
سمحوا لأنفسهم بالتكهنات ، ولم يحب ظنهم .

انقلب الربيع خريفاً والخريف ربيعاً وعادت السنة دورتها المعتادة ،  
وجاء يسأل متفهماً :

- ما الذى جعلك تفين معرفتك بالانجليزية البارحة فى الحفل ؟ لقد  
أسأت للرجل أيما إساءة . لماذا قرأتين بالناس هكذا ؟ ولماذا قلت لخديجة  
أن أملك اسمها آمنة ؟ وعندما أراك محمد التقرير الصحى الذى جاء به من  
سويسرا ، ماذا أضحكك كل هذا الضحك؟ والآن على الغداء . لماذا  
قلت أنك تشمين رائحة مجار؟ وليست هناك رائحة مجار .

- هى روائح فى أنفى أنا فقط التى تشمها .

ويسقط في يده . ينظر لى بعينه الرماديتين المعدنيتين ، وأرى تأرجحه بين الرغبة في الفهم ، والرغبة في عدمه . عليه الآن أن يختار . في النهاية ينحاز لنفسه . أى امتحان مستحيل هذا الذى أفرضه على أحبائى . أصر أن أخرج إلى العالم في ثياب رثة ، وأعقص شعرى دون أن أجففه ، وأنزل إلى حفل مهيب ؟ أقص أظافرى ، ولا ألومها ، ولا أضع على وجهى المساحيق ؟ وأصر أن على من يحبنى أن ينحاز لى ويأخذ صفى بالذات إذا تعاملت نبرة استخفاف هنا أو هناك ، حتى لو كان هو نفسه هدف تلك النبرة وكان قلبه مستقرها . يصبح لزماً عليه أن ينسى نفسه ، ويهب مدافعاً عنى أنا ، دائماً . ولو تبدل الحفل واتيكت الحفل والمراسم تبدلت أنسا كذلك . لسو قالت بطاقة الدعوة أن على السيدات عدم وضع المساحيق ، وارتداء الملابس الرثة وعقص شعورهن إلى الوراء في عجلة واضحة ، وقص أظافرهن والتخلي عن وضع المساحيق . لو قالت بطاقة الدعوة مثل هذا لذهبت إلى ذلك الحفل بالذات وقد ارتديت أجمل وأعلى ثيابى ووضعت المساحيق على وجهى بعناية فائقة ، ولو كانت أظافرى قصيرة لأطلستها بأظافر صناعية ، ووقفت أطلب من يحبنى أن يفخر بى مهما نالته أسهم الاستخفاف أو الهزؤ من صناعى . فأنا كيف يتسنى لى أن أعرف أنك تحبى أنا ، ولا تحبى من أجل سواد شعرى ؟ ومع هذا أحاول الشرح ، وكلمما حاولت ازداد غموض عينيه ورأيت مؤشر الانحياز يتباعد عنى ويفصل بيننا ونصبح اثنين ، وأعلم أنه انحاز لنفسه ضدى . فاستميت فى الشرح :

- هي قرايين ، أدرا بما الوحوش في المحاكمة . لو نفضت عن نفسى كل الصور ولم تعد لى صورة يتعرفون منها علىّ ربما يكفون . لو راوغتهم ، ربما تعبوا أو احتاروا ، ربما كفوا عن تعذيبى . كيف يتسنى لك ان تفهم ؟ أنهما قرايين أدافع بها عنك ؟ أدفع صورى بديلا . أبراباً خادعة تحيد بالخصوص بعيداً عن أبواب الكثر : منازل الروح الحقيقية .

- وماهى تلك يا كيمى ؟

ولما لا يخبئه رد وترتفع الدموع أمام ناظره تحيله تموجات ، مراوغة يثابر فى طيبة :

- ماذا تقول لك الوحوش فى المحاكمة يا كيمى ؟

- تقول انى كاذبة وأحيا حياة نرجسية كاذبة ، واذا لم أمح عن نفسى الكذب . تموت أنت .

- أنت تعلمين أن هذا هراء . أنت أذكى من ذلك وأعقل . أنظرى إلى نفسك . أنظرى إلى الناس الذين يحبونك . أنظرى كيف أفخر بك؟ لماذا تقوضين حياة سعيدة بالخيالات .

- كذب . أى حياة سعيدة . سوف أريك .

أذهب إلى ألبوم الصور صندوق الشرور الصغيرة وافتحه فتطايير منه شظايا الكلمات وأشير له : فتاة تبتسم للكاميرا ومن ورائها الأكروبوليس ثم إلى امرأة رأسها مرفوع بصلف ملتذ والهواء يجرى بشعرها بعيدا عن

الجبهة ، فوق سفينة في البحر . هناك أخرى يكاد ينشق فكاهها من ضحكة لاتدرى لها الآن سبباً . وأخرى تدلى بحديث في جمع والكل ينصت . شظايا صور أخرى كثيرة أمام برج بيزا المائل ، بجانب الفونتاننا دى تريفى فى روما ، صباح يوم أحد أمام قصر باكنجهام ، بحيرة لومان من نافذة البوريفاج فى جنيف ، المدينة القديمة فى أمستردام ، وحقول الدافوديل: حقول النرجس البرى الكاذب . وصورة لآمنة تتطلع إلى الصور فى مجلة قديمة ، وطفلة شقراء من الصعيد ترتدى فستاناً مزركشاً وردياً ، شعرها هايش ، تلوح للكاميرا بكف متسخ ، وعلى رسغها وشم الصليب ، وصورة لسائحين يلتقطان صورة لسائحين يلتقطان صورة وصورة من دبلن فى المطر .

- أرايت ؟ فهمت الآن ؟ كل هذا ماذا يقول لك ؟ أعطنى عقلك ، أعطنى عقلك . قل بماذا تحدثك الصور ؟

- ذكريات لابد أنها كانت جميلة . أوقات خالية من المتاعب والمسئوليات .

- أوقات النرجس .

مددت يدى للصور ومزقتها واحدة واحدة ببطء وهو ينظر ، لم تبق سوى صورة فتاة تلوح للكاميرا بكف متسخ . وكارت الفيزا هديته الأخيرة .



يرتفع البغض بيننا حائطاً يصد كل ذكرى حنون ، وتقع أعيننا داخل  
أعين بعضنا بعضاً ، وأشعر برأسى يتحول حجراً .

ربما جاءوا بطبيب . ربما سهروا ليالى يترقبون . ربما أيضاً بكوا  
وواسى بعضهم بعضاً . لكن المؤكد أننى نمت نوماً طويلاً وعندما أفقت  
كنت أبكى ، وأصر على غسل وجهى من المساحيق ولم تكن به مساحيق .  
بجانب السرير جلست أُمى ، وعندما فتحت عيني كانت تبسم  
مشجعة :

- سوف أجئ لك بشئ تأكلينه يجب أن تأكلى الآن وتستريحى .  
- قتلته ، أرايت ؟ قتلته . لو كنت رأيت عينيه وأنا أمزق كارت  
الفيزا ، لم أدفع القربان ، أنا قربان ، عندما لا أدفعنى . يموت أحدهم .  
دائماً .

صوتها عاقل ، واضح وبسيط فى تعامله مع الكلام :  
- لم تقتلى أحداً لم يحدث شئ . أنت متعبة قليلاً ، هذا هو كل ما  
فى الأمر .

- لو لم أصر على قتل نفسى ما قتلت أحداً تفهمين ؟  
- أى جرائم يا كيمى ؟ أى قتل ؟ لماذا تصرين على تدمير نفسك  
هكذا ؟

تتكحل عينا أُمى ، وتتلاشى صورتها . يحل محل كيانها رائحة برتقال  
قوية . وأتذكر .

أيام طوال ذهني فيها سريع التشتت . لا يقوى على المكوث مع  
فكرة واحدة أطول من ثانية . يجرى بي من فكرة إلى فكرة ومن ذكرى  
إلى أخرى في سرعة البرق ولا أستطيع التركيز مهما حاولت . وأجاهد  
وتخونني ذاكرتي تحت وطأة أى عاطفة مارة فيدق قلبي في رأسي وترتجف  
يداي وتتلاحق أنفاسي وتخور روحي وأكاد أستسلم للنفق المظلم الوحيد .  
لكنهم ساعتها يظهرون في رحمتهم ويؤكدون: اذا امثلت للعقاب تموتين ،  
واذا لم تمثلى يموت أحباؤك . في النهاية أمثل ، أنفض عن نفسي كل  
تراكمات الصور ، ولا تبقى منى سوى القشرة ما قبل الأخيرة .



## منازل الروح

كانت بيدى بصلة وكان ذلك صباح يوم شم النسيم . وكنت أقشرها ، ولما انتهيت عرفت أن ذلك هو كل ما هناك وأنهم كانوا يخدعوننا ، ربما بحسن نية . وربما تشبهاً أحق بأمانى خائبة . لو كان درس الحساب يبدأ بتقشير بصلة وعدّ طبقات القشر التى تتكون منها ، وقيل لنا :

- أنتم أيها الأطفال كذلك مثل البصلة ، مهمتكم فى الحياة أن تقشروا ولكن لأن طبيعتكم غير طبيعة البصل ، تستدعى تلك العملية فى حالتكم الكثير من العنف والألم . تظل كل طبقة من طبقات كيانكم مجملولة لامعة تستدعى ناراً حامية لإزالتها عن سطح الطبقة التى تليها . فى نهاية الأمر لا يتبّ منكم شئ . وكل المطلوب منكم هو أن تنتبهوا . وكلما جاء انتباهكم مبكراً كلما صار وجودكم فى الطبقة التى تحيولها وجوداً زاهياً مشرقاً ، قوياً ونشطاً . وعليكم احتمال نار الكواء التى تصاحب إزالة طبقة لتظهر من تحتها الطبقة الجديدة لوجودكم . هذا هو الجحيم .



أما الصراط المستقيم فهو الانتباه التام ، وهو على هيئة دوائر متداخلة وليس خطأ طويلاً تقعون منه يميناً أو يساراً، أما اللجنة فهي العدم، وهي مآل الكل في النهاية .

هل كان يختلف الأمر في شئ لو أنهم كلفوا أنفسهم مثل ذلك؟ هل كان يزول عن العالم كل ما يجعله جديراً بأن يكون عالماً ؟ أم أن حكايا أخرى وأساطير أخرى كانت تحل محل الحكايا التي نتوارثها هنا ؟ هنا فقط لأن قصة البصلة تلك بشكل أو آخر تروى لأطفال في أماكن أخرى بعيدة ، يولدون ويكبرون ويموتون مثلنا تماماً .

ترى لو كانوا حكوا لى حكاية البصلة وقشرتها بديلاً عن قصة الصراط المستقيم ، عن أى التدريبات كان سيتفتق الذهن الصغير؟ وهل كنت لاحظت حينها أن الرصيف إلى المدرسة كان بالفعل على هيئة دائرة كبيرة لا تكتمل إلا في مكان غير ملموس في الوجدان وأنها هناك تفضي إلى دائرة كبيرة أخرى لا يلمس طرفها الدائرة التي تليها مباشرة إلا عند النقطة التي تفضي إلى درجة أعلى وأن الدائرة ربما في نهاية كل هذا الصعود التدريجي انما هي على هيئة حلزون كبير . وإذا كنت اقتنعت بمثل هذا ، هل بالفعل كانت تستدعي تلك القناعة تحولاً في التدريب على الانتباه . وهل كانت مثل تلك المعرفة في وقت مبكر تعفيني من آلام الرأس التي تسببت لي فيها عانس مسكينة ، كل ما كان يذكرني احساسها بأهميتها وتفوقها هو قدرتها على حل مسائل الحساب في مدرسة ابتدائية .

هل كانت حكاية البصلة تعفينى من الشعور بالذنب تجاه آمنة ومن بعدها تجاه مريم الصغيرة . وهل كانت لاتؤلى الكلمات؟ أم أن ألم الكلمات لا مفر منه ؟ ألم الكلمات هو النار التى تحرق سطح القشرة المجلوة لتظهر القشرة التى تليها وهى المؤشر والنبه إلى اقتراب لحظة الصعود التالية إلى الدرجة التالية فى الشكل الحلزوني الكبير . نفس الكلمات فى أوقات مغايرة لاتؤثر . هناك اذن عامل آخر يتدخل فى قدرة تأثير الكلمات فى وقت دون آخر . لابد أن نضج ما ينبع من داخل البصلة يجعل الكلمات تقوم بمهمتها فى التخلص من القشرة التى تكلست حتى تظهر الطبقة التى تليها . كيف قاومت هذا القدر طيلة هذا الوقت حتى انى تعاملت مع الكلمات على انها بللورات تتجمع حولى لتصينى بالصمم . ما الذى جعل كل تلك القسوة الرهبة الجميلة ، تفقد جمالها المروع وقدرتها على الخلق السديع وتنسج نفسها جرسا عظيما يحمينى من التحول ويعوق قانون النضج الطبيعى . ماذا يحدث عندما نصر على الاحتفاظ بالبصل فى الأرض أطول مما يجب ؟ ولا نعرضه فى الوقت المناسب للشمس والهواء ؟ يعطب البصل ويتعفن . يصبح غير قابل للتقشير . يفقد خاصيته التى جبل عليها . وتكون حجتنا دائماً أن الأوان لم يأت ، أو أن هذه البصلة أو تلك أضعف من أن تحتمل ، قسوة الشمس ، وعدم اكتراث الهواء . كانت الأصوات قد بدأت يسبقها صدادع هائل يعقد نفسه بقوة حول الدماغ ، وأنا أخلق فى البصلة التى فى يدى وهى تتقشر وتتقشر حتى لم يعد منها سوى فص صغير مزدوج لوزى الشكل . لم أتركه

ورحت أقشره عن بعضه والمهمة تصبح أصعب كلما تقلص حجم البصلة  
في يدى .

لما انتهيت من التقشير نظرت إلى طبقات الجلد الذهبية الفضية  
الشفافة بين يدى وتلخص الأمر كله فى ذهنى . هناك أناس يولدون  
ويموتون هذا هو كل شئ . هكذا تبدو الأمور عندما تتلاشى الأوهام  
أو تتلاشى الحقيقة ، ما الفارق ؟

هكذا حال الناس؟ هكذا حالى عندما يستبد بى الوجه الآخر من  
الشغف المترقب لشئ يحدث . ولما كان شئ يحدث بالفعل لم يكن بى  
ساعتها شغف أو ترقب . أنا مجمل معرفتى بالعالم لاتتخطى حدود جلدى  
أنا ، غلافى الآنى فى هذه اللحظة بالذات . وإلا كنت علمت أن هشام  
يموت فى ملعب التنس وأنهم فى تلك اللحظة التى كنت أقشر فيها البصلة،  
ذهبوا لأبيه ليخبروه بالنبأ ، وكان غاضباً واثراً لأن هشام أخلف مواعده،  
على الغداء وسأهم :

- لا يستطيع الحى ؟ لماذا ؟ مات ؟

فردوا : نعم .

فى لحظة عشوائية تماماً انضم هشام إلى كل الذين عرفتهم وماتوا قبل  
عامهم الأربعين . انتحروا أو قتلوا وآباؤهم وأمهاتهم مازالوا أحياء  
يرزقون ، ولا يبدو لأحد أن ذلك أترأ يدعو إلى الدهشة ويظل الناس

يتعاملون مع الموت على أنه شئ يصيب الناس بعد أن يكونوا قد قُشِّروا  
عن آخرهم ، ولم يعد هناك احتمال آخر لتجدد غلافهم والمعاودة .

يتسلل هشام بين صفوف الشباب والشابات الذين لم يوفوا دين  
الرحيم كاملاً ، لم يقشروا حتى القشرة الأخيرة ، ويتخذ لنفسه حيزاً  
في ذهني لا يبرحه ، لا لأنه مات قبل أن يُقشَّر عنه غلافه الأخير ، ولكن  
لأنه عاش هنا وهناك في مساحات احتلتها نفسى :

- ألا تحب جين يا هش ؟

- مش عارف ، قال .

- لكنه لا يمضى يوم عليك دون لقيها .

- ربما .

- ربما تحبها ؟

- ربما أدمنتها .

- هى تحبك .

- النساء يقلن ذلك كثيرا .

- أم انك تخاف ؟

- نعم أخاف .

- واذا تزوجت مصرية لا تخاف .

- واذا تزوجت مصرية لا أخاف .

- لم ؟

- أشياء تحكمها ولا تستطيع منها مناص. أبوها وأمها أخوتها والناس.

- وهل تتزوج كل هؤلاء ؟

- نعم أتزوج كل هؤلاء وأريح دماغى .

- ودماغ امرأتك يأفُس ؟

- امرأتى فى الغالب لن يكون لها دماغ .

- ونحب جين ؟

- جين أو غيرها .

- ونخون زوجتك ؟

- أنا لست متزوجاً حتى أخون أو لا أخون ، ما هذا السخف !

حجبوا عني نبأ وفاة هشام ثلاثة أيام . وفى اللحظة التى استوعبت فيها الخبر غشيتنى رائحة بصل نئ قوية نفاذة حتى أن دموعى بدأت تنهمر ووخزتنى مقلتاى وانسد أنفى . وجدتني أتذكر البصلة التى كنت أقشرها صباح يوم شم النسيم .. شئ ما يتبقى دائماً .. شئ ما يظل لا يموت ،  
الروائح ؟



## المرة الأخيرة ؟

الأيام اما بيضاء أو سوداء أما أيام القحط فهي رمادية بلاشغف  
أو خوف وبلا شفقة أو حب . باهتة ، تقضى تحت فعل الأدوية المنظمة  
للمزاج، مقتولة بيد يأس لا قرار له ولا قاع، يغلفها حزن من تلقى معرفة  
ما قبل الألوان ، دوغما أمل فى تغيير أى شئ . يأس من كل رحمة ،  
يصاحبه صمم عميق يلف الجمجمة من الداخل ما بين الجلد والعظم .  
صمم يغلف حتى اللسان . وكان الجلد والعظم واللسان لرأس من  
الحجر . اختيار اللامبالاة . اختيار اليتيم والبنات الصغيرات اللواتى  
لم يسمعن أمهاتهن يقلن : أنا اللى يمس شعرة من راس بنتى أكله .

الحياة أمامى مشاهد تبدأ وتنتهى وأنا ذهنى فى مكان آخر . فى الربيع  
والخريف وليس بهذا الانتظام المطمئن . يذهب رأسى إلى حيث لايبالى ،  
ولا يستجيب . وتستوى كل الأمور . أعود أو لا أعود . أستعيد  
احساسى بدماغى أو لا أستعيده . وتفقد الأمور والأشياء صلاحها وتتنفى  
المعاني . المسمار الصغير الذى كان يجعل من المقص سلاحاً تلتقى عنده  
الكلمات وحين تزول الشفرات بين الجمل التى تتكون منها الكلمات  
تنبثق المعانى وتنتشى الحياة مزهوة بنفسها ، يسقط . ترتخى مفارقات

الوجسود ، تطاها رطوبة ما ، وتفتقد الكلمات الخشونة التى تقاوم رثاءة  
الستكرار وتميعه . تشيخ الحياة ولا تعود تنتشى . وتغلا الصحف والكتب  
والاذاعات المراثى على الشعراء الذين كانوا يملأون جنباتها والشوارع  
بصخب غنائهم الحر الطليق ، يخلقون المعانى من أوراق قلوبهم ، هؤلاء  
أيضاً قتلوا أو انتحروا ، أو أكلهم السرطان البطئ . ومن بقى لا يعتد به ،  
الكل يتشكك فى جدوى الكلام .

يحيى يونسو بذكرى انعدام الجدوى ويسريل العالم بالحداد الذى  
لم يحمه مئة فرح فى بيتنا وبيوت الجيران . كل العطور "العربية" لا تمحو  
رائحة ذلك الدم . يصطفون أمام طائراهم ومن خلفهم شاشات الذاكرة .  
هم فى طريقهم إلى المعركة التى كانت سوف تنهى كل المعارك ونأمل  
عندما يعودون ، ولم يكن بنا شك أنهم سوف يعودون ، مجروحين ربما ،  
فقدوا زملاء ماتوا ربما ، ولكنهم ، هم بالذات أبناؤنا وأحبابنا سوف  
يعودون . فلما لا يعودوا نتخلص سريعاً من رائحة أجسادهم . رائحة  
البارود والدم ، رائحة العرق فى طابور الجمعية الطويل ، رائحة زيت  
التموين ، ورائحة تذكرة السينما تحمل رسوماً كنا ندفعها راضين:  
للمجهود الحربى . ونفتح أجهزة التلفزيون . آمنة أمام الشاشة تبكى ،  
وأنا أعلم أنها لاتبكى مصر مصرى الذى كان يحارب أعداء بلاده ، وانما  
تبكى لأنه عندما دفع حياته كان ذلك فداء لحياة ابن العمده . صار موته  
جريمة عاديه من الممكن أن تتكرر بلا معنى فى أى يوم .

انظر إلى وجه آمنه وأعلم أنها تتذكر أشياء لا أعلمها ، ولكنها تبكى  
مثلى انعدام جدوى البطولة . شعور تغلفه في نبرة الاعتقاد وهي تمسح  
وجهها بكلتا يديها من الدمع :

- عيني عليك يا ابني .

كنت أظن أنى وحدى التى مت بينهم بعد أن شرخ دماغى بللور  
ترابيزة السفرة ، وأنى وحدى استسلمت لسيور البللور الذى نسج جرساً  
عظيماً غلف وجودى حتى لا توخرنى الكلمات . وأنى وحدى صرت  
صماء بكماء ، يحادثوننى عندما يحادثوننى كمن يسكن جسداً صحيحاً  
لكنه غير مسموح له بالحركة ويظل أحدهم أو كثيرون يجبرونه على  
مشاهدة ما يدور فى الدنيا من حوله اجباراً . استدير لآمنه .

أسأها :

- بتبكى ليه ؟

- أبداً يا كيمى ، أصلى اشكرت أخويا .

- هو أخوكى مات فى الحرب يا آمنة ؟

- لا أبداً ، ربنا يديه طولة العمر !

أنا وهى فقط طيلة أشهر الصيف وبيننا التليفزيون . ولا شئ يحدث .

فى سبتمبر يعرض التليفزيون فيلم ساحر أوز فيوقظ حزناً ما فى  
الذاكرة ، وتلين العيون ويفتح اللسان الطريق للرتين والضحك . تقف



جودى جارلاند على آخر الطريق الحجري الأصفر ، وتخط كعبى حذائها  
الأحمر الماسى وتقول فى توق حقيقى:

- There's no place like home, there's no place like home

تنظر لى آمنة مُبْتَسِمة مشجعة وقد رأت فى عينى انتباها غاب شهوراً،  
ثم تترك غرفة الجلوس إلى المطبخ . ترجع ومعها صينية عليها أشياء .  
رائحة التوست الساخن تسبقها . على الصينية ، جبن أبيض ، وزيتون ،  
وخيار وزبدة ومربى اللارنج وبراد شای .

واباغتها : مش عاجبك الفيلم ؟

- شفته ميت مرة قبل كده .

- اشعنى ده اللى زهقتى منه؟ ما انت بتشوفى كل الأفلام ميت مرة  
وما بتزهقيش .

تلحظ شيئاً على وجهى فتجئ حيث أجلس على الكنبه وتمسح على  
خدى . وتسأل :

- مالك يا حبيبى ؟ كنت بتضحكى من دقيقة بس .

- عايزة أروح ، يا آمنة ، زهقت .

تبسمل وتحوقل وتستعيز بالله من الشيطان . تضع يدها فوق رأسى  
وتبدأ فى قراءة السبع آيات المنجيات فى صوت خفيض جداً لا يسمع .  
ولما تنتهى تجذبني إلى صدرها الكبير وتظل تمسح على شعرى :

- انت فى بيتك يا كيمى ، هنا بيتك وانت دلوقت وسط أهلك  
وناسك .

- انت ليه ريمتلك برتقال ؟

- كنت باعصر برتقال .

رائحة البرتقال تغشائى . وأعرف أن الشتاء اقترب وأتذكر الهمة  
والنشاط، وفوط اليد الشاهقة البيضاء، وأمى . أمى هى رائحة البرتقال .  
كيف استحوزت آمنة على رائحة أمى ؟

- مش حاطه كولونيا ليه ؟

- حطيت الصبح لازم طارت .

- طارت فين يا آمنة هى الكولونيا بتطير ؟

- تستعيز بالله مرة أخرى وتربت على شعرى .

- أنا عارفه يا ربى كان مستخبلنا فين ده !

وأفزعها : كان مستخبي فى البالوعة ، لو دخلت الحمام دلوقتى  
حتلاقيه بيثن من الألم وانت السبب . فاكرة؟ انت اللى قتلهم يحطوله  
ازاز مدقوق فى البالوعة ! انت اللى موتى الملك الأطلسى ! وأضحك .  
وتشتبك معى فى التو حتى لا تضيع فرصة اللعب أخيراً بعد أشهر  
الصمت الطويلة :

- الملك الأطلسى ما ماتش .

- مات يا آمنة ، مات اعترفى ولو مرة واحدة انك كنت بتألفى بقية الحكاية عشان تنتهى نهاية سعيدة وأن الملك فى الحكاية الأصلية مات .

تصمت فجأة ولا يطرف لها جفن ، ولا يبين على محياها أى تعبير .  
تصير كتلة من الحجر . وأفزع . لقد نظرت فى عينيها . كان على فى مثل  
تلك الأحوال عندما يكذبون ألا أنظر فى عيونهم وإلا تحولوا إلى حجر .  
ولما أصرخ فيها استجديها الا تتحول هكذا تكون قد ولت عنى .

بعد نوم طويل أصبحوا ويبدأ الغضب فى الاستيلاء على كيانى : هى  
مثلهم جميعاً ، لا تفهم . هى كذلك نشيطة ، ولها روح قوية تصارع من  
أجل البقاء . صوتهما قوى ، حركاتهما قوية ، تنبع من إيمان ولا بد أن الحياة  
مهما كانت تستحق أن نغيها . كاذبة مثلهم جميعاً . أنا لا أرى للحياة  
أى مبرر ، ولا أريد لوجودى أى تأثير ، وليست بى رغبة فى أى شئ  
سوى أن يحل عنى عرض الحياة هذا .

ثم يبدأ البكاء . تروى الدموع الروح الهامدة ، ويغويها الحزن  
المستعاد ، يسرى لها بالمستحيل : فى امكانك اللحاق بالمستحيل ، ضرب  
الحائط بما يسميه مهندسو المواد "الأنثروبي" . يقولون أن كل حركة قدم  
مهما ضعفت تمضى بكل ذرات الحياة المتماسكة إلى درجة أعلى فأعلى  
من الفوضى . بعد الارتواء ، يحل محل الدمع اصرار وعند ، لبدء رحلة  
فى عكس الزمن ، لكنها أبداً مما مر منه ضعفين . يكاد الخاطر يقعدنى ،  
لكنى أقاوم ، لا يمكن أن يموت المرء هكذا دون أن يحصل على معنى ما .

فى كل الأحوال ، المعنى صعب المنال فما بالنال لو أن المرء بدأ حياته وقد  
توافرت كل الأشياء بسخاء غدا وبعد غد وبعد غد ، و إلى الأبد لك  
بيت وأهل ، ولن تعوزى شيئاً ، كما أنك لست مطالبة ببذل أى مجهود  
على الإطلاق ، وإذا عنَّ لك بذل الجهد فربما كان ذلك أمراً جيداً .  
وأعلم أن الكثير من الجهود التى يجود بها أمثالى لاتؤثر فى شىء ولاتبدل  
من شىء ، لكنى أقاوم . فى امكانك الاتيان بمعنى ما ، وان كنت لاتخافن  
فقد الأشياء ، تعلمى أن تخافى فقد الخوف ذاته . هذا هو محرك الوحيد ،  
وعلى عكس كل ما يدعون . إذا كنت لاتخافن رأى الناس فىك ، خافى .  
خافى . واذا كنت مت قبل أن تموتى ، وأفقدك الموت أحبابا وأصدقاء  
بغته ، وثقياً لك أنك تصالحت مع الموت : خافى الآن . خافى . هذا أملك  
الوحيد فى الاتيان بالمعنى .





## الشك

الشك عتبة الخوف ، الخوف من الممكن تثقيفه حتى يصبح ازميلا  
ينحت به الوجود . وجود صاحبه . أعلى أحسنه الموت . كل خوف  
قبل ذلك نسي . كل قياس مع الفارق . ولكن اذا زاد الموت عن حد  
الاحتمال في الخيال ؟ وصار في يد أي من كان أن يميتك نزفاً بالكلمات ،  
هل يترك لك ذلك مساحة للخوف الذي ينحت به الوجود ؟ كل خوف  
هو خوف في الخيال يغذيه العقل الواعي من الذاكرة . هناك حيث تخزن  
الملاحق التاريخية لكيان زبقي لا يرسو على حال : أنا ، نحن . من أنا تلك  
ومن نحن ؟ ولو ذهبت إلى ذلك المخزن العجيب حيث كل لحظات  
التاريخ محفوظة في صور دامغة ، من يدري أن عين الكاميرا ويد المصور لم  
تعمدا تشويه هنا أو تحسين هناك . أذهب إلى ألبومات الصور أتفحصها  
لعلى أجد الاجابات . مم كنت أخاف ؟ أي "البزات" كنت أتخذ وأنا  
أعلم أن الكاميرا سوف تحتفظ لي بها محنطة في صورة نهائية ؟ أي تعبيرات  
كنت أرسم على وجهي اذاك ؟ وعندما كانت تغافلني الكاميرا ، ماذا  
كانت تلتقط؟ واذا فرغت إلى نتيجة بعد هذا البحث هل أكون وصلت  
إلى حقيقة هذا الكيان المتحول أبدا في الزمن ، كل طرفه عين ، كيف

يمسك المرء بمثل هذا ؟ كيف يستطيع القول : كانت الأمور على هذا النحو ، وكنت أنا هكذا : لا أخاف سوى أن أفقد الحرف ، وكان الحرف وحده هو الذى يأتينى بالمعنى ، وكان الخوف من الكلام وضياح اللحظات المسحورة على كل ألسنها .

العالم قنينة من الشك والسحر نوعان : أبيض وأسود . أيام السحر البيضاء تبدأ بحزن شفيف ومحبة طاغية تشمل كل شئ ، وتتعاطف مع كل ألم . التعاطف كلمة منقوصة هنا . الأقرب أنها أيام يتعاطف فيها الكيان المدرك للوجود مع ذاته حتى يتبدى له أنه هو الوجود ، وخوف عظيم وشفقة أعظم على تلك اللحظة السريعة الخاطفة التى لا تدوم . شئ مثل هذا يحدث لمن يدعون أنهم فهموا لغة الطير والوحوش ؟ فى السيارة على طريق القاهرة - الإسكندرية الصحراوى أدير مؤشر الراديو على محطة البى بى سى . وأسمعهم يقيمون قداسا على روح القديس فرانسيس الأسيزى . تتجمع طيور فى السماء ، تكون سربا متناغما وقائدها يتراقص بها على الموسيقى المنبعثة من الكاتدرائية البعيدة . شئ يتسق تماما مع اللحظة وإدراكى لها ، أصبح أنا والطيور والسماء والطريق والموسيقى كياناً واحداً . ولما أعود إلى بيتى ، ألح البورتريه الذى رسمه لى فنان قدير فى جانب مترو من حجرة الجلوس أنظر إلى وجهى فى اللوحة الزيتية وأرائى أغمر لنفسى وأبتسم !

فى الأيام السوداء تكون قوى الشر مملكة من العالم تماماً وتكون كل التفسيرات هازئة ، متعالية على أغراض السحر الطيب ، نصفها بأنها

أغراض دنيئة لا يصح للأذكاء الاعتداد بها أو حتى ملاحظتها .  
وإن لاحظوها يصبح حتمياً عليهم أن يفسروها تفسيرات تليق بالأذكاء :

- شعور ذاتي محض ، قال الطبيب ، عندما وصفت له الطيور وهي  
تتراقص على موسيقى القديس . القديس كان له وجه آخر . كان فظاً  
ولا يعتد بالنظافة الشخصية . أما حكاية الصورة التي تبتسم وتغمر  
تلك ... وراح يضحك وهو يرّبت على كتفى في حنو أبوى : كنت  
تقرئين " عالم صوفي ؟ " ثم نظر إلى ساعته وكان ذلك مؤشراً بانتهاء  
المقابلة .

في الأيام السوداء تكون التفسيرات الذكية في علو وسيادة ، توازرها  
قوى العقلانية والتفكير السليم . المقدمات تصفى من كل افتراضات  
الصدق ، والطيبة أو الخبة . تفقد الظواهر علاقاتها ، تصبح قوائم  
معلومات بلا معنى . الطيور تطير لأن من طبيعتها أن تطير ، واللوحات  
تبتسم وتغمر فقط لمن تحددتهم حواسهم . الأصدقاء يسألون لأن لهم  
غرضاً ومصلحة ، ان لم تبدى في تلك المكاملة بالذات فذلك لأهم  
ماكرون ويعلمون متى يطلبون . التوقيت الجيد هو سر النجاح في الحياة  
ومع البشر . التوقيت لا علاقة له بلحظة سحرية يتوافق فيها المكان  
والزمان من خلال ذات أخلصت في قسوتها على نفسها من أجل لضم  
اللحظات الحقيقية المجنونة . أملاً في الفوز بالمعنى :

- ليه بتسمحي للناس يستغلوكي كده يا كيمي وبعدين تزعلي  
منهم؟ قالت أمها الحصيفة ، الواعية .



- ماحدش بيستغلنى ، أنا أعطيهم بملء ارادتى ، ومايزعلش .  
- يعتبروك ضعيفة ، ياخذوا منك اللى هما عايزينه ولما تدورى على  
حد يساعذك ماتلاقيش .  
- كل واحد بيدى اللى يقدر عليه .

- الا أنت بتقدرى على كل حاجة ، مش كده ؟  
دون تلك اللحظات كانت الأيام رمادية لا تستحق أن يحياها المرء .  
وعلى الرغم من الألم والتصورات المشوشة المخلولة ، وكل الاتهامات  
باطلة وغير باطلة فى محاكمة الذات ، وكل الأحكام التى تحكمها الذات  
على نفسها وتقتص: موتى يا أنا ، كاذبة أنت ، منافقة ، متعاطمة ،  
مغرورة ، خائنة ، مهملة ، غبية ، قبيحة ، ساذجة ، شريرة ، مستهترة ،  
لا تحسنين عملا ، نرجسية ، لا تحركك آلام الآخرين ، لا تمدى يد  
العون ، سفية ، هازنة ، لا رجا منك ولا غفران لك . وحدك السبب  
فى كل شرور العالم وبلاويه ، وحدك مسئولة ، وأيضاً تخافين ، جبانة  
لا تفوين .

صور كثيرة التقطها ، اناس كثيرون أعطوها تلك المعالم وحنطوها  
فى ألبوماتهم على صفحة النيل ، أمام الأهرامات ، حديقة منزل جدتى ،  
أمى تسقى الزرع فى بلكون بيتنا ، أبى يصافح الرئيس ، أبى بين فئرو  
ونكروما . اللاذقية وبلجراد وبودابست شاطئ المنتزة فى صيف ٦٧ ...

وترتفع الأصوات في دماغى تدين: خذلتهم. وأدافع : هم أيضاً خذلوني.  
من ذا الذى يعترف لنفسه أن له طفلاً ليس كبقية الأطفال، يسمع أصواتاً  
ويخاف ألا يخاف . الشك يحرق كل صور المحبة . يعرض الأفلام فجأة  
لضوء النهار الجارف ويحيل مرايا العيون أحجاراً ويرادف بين البشر  
والخديعه ويعلمنا الا نصدق أحد . نصبح أذكاء ونهزأ . "تفتكرى كل  
حاجه .. مش كده ؟! انت .. "





## درس القراءة

الأستاذ شهير . يجلس على منصة عالية . ينظر لى نظرة متفحصة ويقول : رحم الله امرأاً عرف قدر نفسه ، أجزم أنه يوجه حديثه إلى .. قدر نفسى ؟ أنا لا أعرف قدر نفسى؟ قدر ضئيل جداً ويتضاءل . كدت أنجح . كدت أصل ، كدت أقشّر وتسقط القشرة الأخيرة . بعدها لا يرانى أحد ، ولا يصبح فى وسع أحد أن يوخزنى بالكلمات ، بعدها لن أكون . من ذا الذى يسألنى عن قدر نفسى؟ بعدها تتحقق رغبات الصادقين الصارمين العادلين الواثقين ، أمحى من مرايا العيون ولا يضطر أحد أن يعترف متحدياً خجله: "نعم هذا المهجين من صلى ، وأورثه" . بعدها لن تعاد كرة ، ولن أقمرد ، ولن أصر على الوجود ، وأعود أندم فأعود أغزل فى الليل ما نسلته فى النهار ، ويكف اللعب . تلك الفتاة ماذا ألمّ بها حتى تلاشت سوف يتساءلون ، يدرأون الذنب ويتساءلون :

- ماذا ألمّ بك . كيف أصبحت هكذا بلا خوف من ألا تكونى ؟ بل

ما هذا الاصرار على ألا تكونى ؟

- كنت أود أن أكون .. أحيا نفسى ، أن أجربها .

- وهكذا لا تحققى شيئاً أبداً . لا تصلى إلى نتائج . لا تستندى إلى شئ ملموس في الواقع . نفسك تلك شئ تصعينه في كل خطوة . تحتينه ، تقتنصينه اذا اقتضى الأمر ، من الطبيعة ، من حولك .

- نعم فهمت مثل هذا منذ البداية .

- أية بداية تلك ، لقد فاقت بداياتك العد والاحصاء . وبعد كل بداية تصبحين مثل طفل فاسد ، لا يطيق اللعبة نفسها أكثر من نصف يوم .

- حدث . كنت أتوق لشئ ليس له كنه ، ولا أدرى كيف أعرفه . العالم بأسره ربما . إما العالم بأسره وإما لا . كيف يتوق انسان أن يكون الوجود ذاته ؟

- يتوق الناس إلى كثير من المستحيلات .

- نعم ولهذا كنت أدرّب . كنت أدرّب نفسي . وهذا هو ما أعاقنى كل ذلك الوقت .

- التدريب لا يرفع الحدود . خلطت بين الأمور . التدريب من أجل الامتياز داخل الحدود . الكل يعلم أن لهم حدوداً لا يستطيعون تخطيها مهما حاولوا ، الا ..

- الا المجانين ؟

- الا المجانين .

والسحرة بالطبع ، وكتاب القصص والروايات .

- السحرة مجانين يا جران ماما؟

- السحرة والشعرا وكتاب القصص والروايات وعلماء الكيمياء .

- والعاقلين يا جران ماما؟

- البنات المؤدبات اللى يسمعوا الكلام ومايكلموش الدياب

فى الغابة .

- وانت ، مال مناخيرك كبيرة كده يا جران ماما؟

- أمشى يا بنت يا قليلة التربية .

كان من المفترض أن تقول: "من العيا يابنتى" بعدها أسألها: ومال عيينيك حمرا كده يا جران ماما فترد: "من العيا يا بنتى" وهكذا حتى قم على شابورون روج تأكلها ، وتعرف شابورون روج أن جدتها ليست جدتها وأن الذئب أكل جدتها وتخفى فى ملابسها ، حتى يستطيع أن يأكلها هى الأخرى ، فقد كانت جدتها تحب الحكايات وتعتقد بينها وبين نفسها أن مطبخها معملا للكيمياء ينتج معادلات توفر الصحة وتلم شمل الأبناء .



لما قالت ما قالت تذكرت يومها أنى سمعت مثل هذا من قبل كثيرا لكننى ساعتهها فهمت أن العالم منقسم إلى قسمين : العاقلين الذين يعادون السحرة ، والسحرة الذين يحاربون العاقلين بالكلام وان المعركة قائمة كل يوم ، وان الأيام لأن بها سحرة ، فهى كلها مسحورة ، وأن هناك

أياماً مسحورة سحراً أبيض وأخرى مسحورة سحراً أسود ، وأن السحر الأبيض هو الفراغات التي تتركها الكلمات بين السطور ، وأن السحر الأسود هو السطور التي تصنعها الكلمات ، وأن الأيام السوداء هي تلك التي ينجح فيها العاقلون الأشرار في منع السحرة من ملء الصفحات البيضاء ، وأن جدتي عاقلة ، فأمضيت الليلة أعيد صناعة الصغيرة ذات الرداء الأحمر ، وألبستها ملابس سوداء لأنى لم أكن أحب اللون الأحمر ، ولأن جدتي كانت قد ماتت :

" ذات الرداء الأسود كانت تعيش في كوخ على ضفاف نهر عظيم ، كوخ نظيف ومرتب ومعنى به تماماً وله حديقة بديعة . وكانت جدتها تحيا في كوخ مثيل على تخوم الصحراء ومع هذا لم تكن المسافة بين الكوخين كبيرة ذلك لأن الصحراء كانت على مقربة غريبة من وادى النهر . وكان لتلك العائلة سر تحفظه الامهات ولا تدلى به الا للبنات . ولما كان يعضى جيل دون ولادة ابنة كان يعم نساء العائلة خوف فظيع على السر أن يموت معهن قبل أن يستطعن نقله إلى ابنة أخرى جديدة . ولما كانت ذات الرداء الأسود قد بلغت السن التي كان من الممكن نقل هذا السر إليها ، استدعتها أمها وأخبرتها أنها سوف تبعث بها إلى جدتها على تخوم الصحراء القريبة في مهمة خاصة جدا . ولم تسأل ذات الرداء الأسود كما يسأل الأطفال . وإنما راحت تستعد في التو للرحيل .

أرّق ذلك أمها فسألته :

- ألا تودين معرفة طبيعة تلك المهمة الخاصة ؟

وردت الابنة :

- يكفي أمها خاصة ، وانك اختصتيني بها .

- هي خاصة وان كنت أوكلك بها فليس ذلك لأنك تتميزين .

فهمت ؟

أحبط ذلك ذات الرداء الأسود فقد كانت بالفعل تظن أن ذهابها إلى حيث الجدة في مهمة قالت أمها أمها خاصة يعني أمها هي أى ضاً خاصة وأن ذلك بالفعل يميزها . وامثلت للردع وسكتت تستمع إلى بقية كلام أمها .

- سوف أحملك أشياء إلى جدتك ، في الطريق لا تحدثني أحداً ، ولا تردى على تحية أحد ولا تتوقفى لأى سبب كان . وبعد أن تعطى جدتك الأشياء التى معك ، لا تمكثى وارجعى فى الحال ولا تتوقفى فى طريق العودة كذلك لأى سبب كان . وعندما وصلت ذات الرداء الأسود إلى منزل جدتها وقد استمعت إلى نصائح أمها بالحرف ، وجدت الباب مفتوحاً على مصراعيه ، تسمرت قدمها وشعرت أنها لو ولجت تحدث لها أشياء لا تدرى عنها شيئاً . ولكنها دخلت وكأنها مسحورة ، وبالفعل شمل كيافها شعور بأنها تركت وراءها عالماً ودخلت إلى عالم جديد ، فقالت لنفسها :

- هذا هو الموت اذن ؟



وهنا سمعت صوت جدتها يأتيها من المطبخ :

- أهلاً أهلاً ، وصلني بالسلامة يا حبيبتي :

وتذكرت ، أمها قالت وهي تردعها :

- سحر الكلام في النبرة . كل الموسيقى في النبرة . والخدعة  
كذلك .



## السرينات

تتلون الأصوات كما يتموج الكلام بالسطور ويحيلها نغمات تغوى  
بالموت :

هيمروبا ، تلكسيبيا ، أجلاوفيني ، بزنيويا ، ومولبا :

السرينات يهمسن متضرعات: "وحدك أنت تقدرين ، وحدك دون  
كل البشر ، وحدك تستطيعين انقاذى ، مساعدتى .. انت فقط ..  
وحدك" .

الكلام يغزل من بعضه وينتقل وينتشر ، والصور كذلك . اللحظة  
وشك الاستسلام . اغواؤها أقوى من كل أغنيات السرينات . فى كل  
اللغات هن وثيقات الصلة بالماء ، وصلات الماء فى مخيلة الرجال . وحتى  
عندما يخرجن من الحقول كما يخرجن فى مصر وأيرلندة يكون حقلاً  
غممرته مياه السقيا ، أو بالقرب من جدول أو بحيرة . ويجوفهم حتى  
الموت: موت الرجال . تخرج النداهة من الماء شعرها الطويل مبلل يلتصق  
هنا وهناك بأكتافها العارية ويصل حتى ردفها . ملابسها تشف عن جمال  
ساحر أخاذ . ترفع يديها تدعو العابر فى صوت لايقاوم . هذا سرها .

سرها في صوقها . يخلع الرجل ملابسه ويتزل وراءها إلى الماء وقبل أن يصل إليها تكون قد تحولت إلى بومة عظيمة تطلق ضحكات مدوية في الهواء الساكن فوق البحيرة ويفرق الرجل .

السرينه الدانيماركية تختلف عن أخواتها الأخريات بدءاً من اللواتي يسكن بحر إيجو وحتى ساكنات الحقول التي يسحرها غياب الشمس في قرى مصر . الدانيماركية أفقدها رجل صوقها أو هي تخلت ملء ارادقها عن صوقها حتى يهبها ملك البحار قدمين تدخل بهما عربة بي أم دبليو سماويه مفضضة وتجلس إلى جانب أميرها الوسيم تحيي الشعب مبتسمة ملوَّحة من وراء زجاج السيارة دون أن تستطيع النبس بكلمة واحدة .

وحدها تلك التي تسكن وارسو ، ناحية نهر فستيو لا ، لاتغوى أحد بغناء يسلب الروح ، ولاتقرأ ، ولا تتخلى عن أسلحتها : السيف في يد والدرع في الأخرى تسهر وترقب وإذا حل الأعداء ببلادها التي تمزقت كثيراً قُب محاربة ، وعندما تحارب تعلو الموسيقى وتنشد بقية السرينات :

"تاب ، تاب ، تاب ، كوكاراكارا ، لالاباي ، خطينتي ، ... جمال الموسيقى يجب أن يسرقك مرتين" .

من ذاكرة الحائط وقف جيمس جويس فوق سريري في دبلن . يضع يديه في جيب بنطلونه الواسع وينظر إلي نظرة كلها طيبة ومحبة ، ثم ينظر مثلي في اتجاه يافطة كتب عليها :

"سكوت : بروفة جنرال : سرينات جيمس جويس" .

من وراء اليافطة ظهر رجل طويل ، شعره الأسود يكاد يلمس كتفيه وتلمع فيه شعيرات فضية هنا وهناك ، شفتاه مثل شفاه ملائكة عصر النهضة ، ويرتدى نظارة خفيفة اطارها في سمك سلك ذهبي . لما يتبسم تبسم عيناه البنيتان في طيبة ذكية . عندما وصل حيث كنت أقف بجانب اليافطة بادرت به ؛ كما لم أبادره أبداً :

- لو سمحت هلاً أخبرتنى . . من أى الأمصار أنت ؟

فرد في بساطة أسرتنى :

- أيرلندة . ولدت هنا . أيرلندة .

ثم عقب بعد لحظة كان يتجنب فيها دراجة كادت تهرس قدمه :

- وأنت ؟

كانت الأصوات أعلى من عاداتها . أصمتنى فلم أرد :

- ربنا انصرونا على أنفسنا لو كنا لها ظالمين .

- رحم الله امرءاً عرف قدر نفسه

- أهلاً أهلاً وصلتي بالسلامة يا حبيبتي :

عرفت أخيراً أننا كلنا نولد هكذا . وأن حيرتك كانت مشروعة تماماً . كيف يعرف المرء إلى أى عائلة من السرينات ينتمى إذا كانوا حكوا له كل تلك الحكايا ثم حرموه الكتابة؟ كيف يعرف إلى أى اللغات ينتمى إذا قالوا : أقرأ فى كل اللغات ولم يقولوا : أكتب . طبعى أن تصبح لغاته قواميس . وإذا صارت لغاته قواميس طبعى أن يكفر بكل اللغات وإذا كفر يتعصب ويضيق الأفق حماية من التلاشى والتماهى ، ولايتشكك؟ كلنا نصنع لأنفسنا أجراساً تحمينا ونقع تحتها إلى حين حتى نبدأ فى الاختناق فنكسر الجرس ، لو كنا محظوظين نلقى من نخبه ويساعدنا فتنسل السيور فى سلاسة لا نلحظها إلا بعد أن نلحظ أننا نتنفس دون حرص أو قلق ؟

- كان جيمس جويس مازال على وقفته أمام يافطة السرينات . وكان يقول مبتسماً :

- أنت تهذين .

لكنى تجاهلت ما قال وسألته :

- عندما كنت تصنع موللى بلوم؟ هل كنت تعلم أن فى روسيا سرينات ينتمين إلى الثلج؟ يخرجن من وراء تلال الثلج وإذا نظر اليهن الرجال يتحولن إلى حجر؟ وإذا نظروا هن إلى الرجال يتحولن إلى ماء ؟

ورد :

- موللى كانت اغريقية ، والاغريقية أم الدنيا .

كسدت أصححه ، ولكن أُمى دخلت وانقطع الحديث ، ولم تلاحظه واقفا ويداه مازالتا فى جيب بنطلونه .

- هيا دعك من الحلقة فى السقف هكذا قومي معى . لقد أعددت لك إفطاراً شهياً .

آمنة مريضة منذ أسبوع . هى أيضاً تود الاطمئنان عليك . اذهبنى لها فى حجرتها . هى لاتقوى على القيام من السرير . أخرجى من نفسك لحظة . أريها كم تحبونها وأنك تَتمنين .

أنا أتمارض إذن . أود جذب انتباههم . إلى ماذا بالضبط؟ كل تلك الأعراض . بك كل الأعراض . يحدث . لا تخافى . هيا سوف أصحبك إلى بيتك . أقصد إلى أمتك . هجين زائف . قل لى بالله عليك فى أى الأمصار نحن؟ باراليل ، باراليل . رائحة البرتقال والبنات اللواتى حرموهن الكتابة فى بر مصر . خافى . شكى . واعلمى انك فى نهاية الأمر لا تساوين بصللة . استمعى إلى النصيحة وامثللى للعقاب . سيارات سماوية مفضضة . العقلاء أقوياء . أقوى من كل السحرة مجتمعين .

- لا يا آمنة أنا ، لست مريضه فقط تحدث لى أشياء بفعل الكلام ، أشك ، وأوقن وأتأرجح هكذا بين طيبة المعانى وخبثها . يوخزنى سحر السريرات ولا أستطيع لها رداً ، يتموج الكلام على الصفحات ويتخذ لنفسه معانى تتناقض مع نفسها بين لحظة وأخرى . تارة تبدو محملة ،

حبلى ، تكاد تفيض بالخير العميم على كل البشر وفي اللحظة التي تليها  
يسنفضُ السحر ويسود العقلاء الأشرار . مثل الموسيقى في الأصوات .  
تفهمين ؟

- زى وشك فى المراية ؟

- بالضبط ، كيف عرفتى ؟

طول عمرك ما وراكيش غير البص فى المرايات .

التفتُ فالتقطتُ وجهى فى المراة فوق التسريحة . مياه المراة متعرجة ،  
تتماوج ، تتطلع إلى ، تراوغنى كالزئبق أراها ولا أراها ، أستمسك  
بمظاهرها وجودها ، كأنها قدت من ماء . وتنسرب من عيني شعاعاً رقيقاً  
كانت تسحبه بصيرتها القاسية ، فأسترجع صدى توسلاتها المسحورة ،  
وتحول نبراتها وهى تدعونى :

- أنت فقط ، وحدك ، تستطيعين .. أنت دون الناس جميعاً .. أنت  
فقط .. تخلصيني .. تخلصينا .



## الأثر

المحو وإعادة الكتابة على نفس الرقعة .

أكتب وأمحو وأكتب . ماذا لو قرأ أحدهم هذه الأوراق قبل أن ..  
تكتمل ؟ الكتابة أبدًا لا تكتمل ومع هذا يقرأها الناس ! كيف يكتمل  
الشيء إلا إذا مات ؟ هذه بديهية . كل شيء مادام حيًا ، لا بد أنه في  
طور ما . فقط عندما نموت نكتمل . أو عندما يميتونا في الكلمات .  
أحباؤنا الذين يصرون على الاحتفاظ بصورنا هكذا أو على هذه الشاكلة  
أو تلك . أو عندما نغيت أنفسنا فيحلو لنا أن ندعى أننا كنا على هذه  
الشاكلة أو تلك ، أو ما زلنا . لأن هناك شيئًا يغوى في النهايات . إغواء  
أن نضع نقطة النهاية بأيدينا ، نغيت أنفسنا بأنفسنا .. نختار العدم بديلاً .  
العدم أرحم . ذلك الآخر يتطلب ألا تنتهى أبدًا .. أبدًا .. أن نمحو  
ونعاود الكتابة والحياة من جديد ، ربما .

★ ★ ★

تمت





## أوراق النرجس

هناك خيط في الرواية يكتنف مشاهدتها المتفرقة ويوحّد نصّها المتشظي ويقدم رسالة كيمي المتدفقة عبر عصف ذاكرتها ألا وهو الدور الخلاق للكتابة والإبداع والأدب في تشكيل الذات وتجديدها على مستوى الفرد والجماعة . تطرح رواية سمية رمضان أسئلة أكثر مما تطرح حلولاً ، لكن هذه الأسئلة ذاتها مؤثر إلى أهمية إعادة تكوين أنفسنا ومقاومة التحجر والتصحّر . وفي هذا تقاطع سمية رمضان مع أدبنا الكبير لحبيب محفوظ الذي قدّم لنا مرآة مهيبة تعكس واقعنا المركّب ، لا لغرض التحديق فيه بإعجاب كما فعل نرجس ، بل لغرض تأمله نقدياً وإعادة تكوين أنفسنا باستمرار إلى ما هو أحسن .

دعونا نحبي سمية رمضان التي أضاءت بعملها عتمة الأفق ومنحتنا رواية معاناة فردية مثيرة لعواطفنا وأمشولة وطنية مثيرة لتأملنا .

من حيثيات تقرير الفور بالجائزة



الوزارة